ليوناردو شاشّا

جثث فخمة

ترجمها عن الإيطالية: نبيل رضا المهايني

مكتبة
t.me/soramnqraa

التنوير
رواية

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

جثثٌ فخمةٌ

ولد **ليوناردو شاشّا** في بلدة راكالموتو في جزيرة صقليّة الايطاليّة، وذلك في عام 1921. كان أبوه يعمل في منجم كبريت، فاستوحى من ذلك قسوة حياة الطبقة العاملة. كما ظهرت في كلّ رواياته محبّة خاصّة لجزيرة صقلّية ولأهلها الذين انتمى إليهم.

شغل شاشّا عدّة مناصب سياسيّة في الدولة، وحزبيّة في الحزب الشيوعيّ الايطاليّ الذي استقال منه لاحقاً بسبب خلافات منهجيّة. كما تمّ انتخاب شاشّا نائباً في البرلمان الايطاليّ وفي البرلمان الأوربيّ. وهناك خصّص شاشّا كثيراً من جهوده لخدمة اللجان البرلمانيّة المعنيّة بالإشراف على التحقيقات بالأحداث البوليسيّة السياسيّة التي عصفت بإيطاليا في تلك الفترة.

كتب شاشّا حوالي 42 مؤلّفاً من روايات وكتب نقد وشعر ومسرح وسياسة، كما تم إخراج حوالي عشرة أفلام سينمائية شهيرة استوحيت من مؤلّفاته.

في عام 1989 مات ليوناردو شاشّا في مدينة باليرمو عاصمة صقليّة الإيطاليّة. ومع أنّه كان شيوعيّاً فقد أوصى بأن يدفن وفق المراسم الدينيّة الكنسيّة. وقد دفن في مسقط رأسه راكالموتو.

Leonardo Sciascia

Il Contesto

الطبعة الأولى 2016

دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

هاتف: 00963 112236468

فاكس: 00963 112257677

ص. ب: 11418، دمشق - سوريا

taakwen@yahoo.com

ليوناردو شاشّا

مكتبة
t.me/soramnqraa

جثث فخمة

روايـة

ترجمها عن الإيطالية
نبيل رضا المهايني

التكوين

يجب أن نفعل مثل الحيوانات
عندما تمحو كلّ أثرٍ أمام جحورها.

مونتين

آه يامونتين! ذنبك أنّك صريح وصادق،
فكن صريحاً وصادقاً ـ إذا كان بإمكان فيلسوف أن يكون صريحاً وصادقاً،
وقل لي إن كان هناك بلد ما على وجه الأرض
حيث الوفاء بالعهد والرحمة والكرم جرائم،
حيث يُحتَقر الطيبون ويُحتَرم الأشرار.

روسو

آه يا روسو!

مجهول

كان النائبُ العام فارغا منهمكاً في قضيّة ريس منذ شهر، ولابد أنّ النظر في القضية كان سيمتدّ شهرين آخرين على أقلّ تقدير، لو أنّهم لم يقتلوه في ليلةٍ حلوةٍ من ليالي أيار، بعد الساعة العاشرة وقبل منتصف الليل. هذا ما أوحت به أقوال الشهود وتقارير التشريح. علماً أنّ أقوال الشهود لم تتطابق كليّة مع نتائج التقارير: لأنّ الطبيب الشرعي أكّد أن الميتةَ حدثت قرابة منتصف الليل، بينما أكّد الأصدقاء الذين كان النائبُ يسهر معهم كلّ مساء، وكان رجلاً دقيق المواعيد، ثابت العادات، أكّدوا أنّه تركهم في العاشرة، قبلها بدقيقة أو بعدها بدقيقة. وبما أنّ وصوله إلى بيته سيراً على الأقدام لن يستغرق أكثر من عشر دقائق، فإنّ ساعةً من الزمن بقيت مجهولة معلّقة، ولابدّ من اكتشاف أين قضاها النائب وكيف قضاها. فهل كانت عاداته أقلّ صرامةً ممّا كانت تبدو؟ أو هل كانت هناك في أوقاته ساعات غير مبرمجة كان يتسكّع خلالها ويهوم وحيداً؟ أو هل كانت له ربّما عادات يجهلها حتّى أهله وأصدقاؤه؟ من هنا أخذت فرضيّاتٌ خبيثة طريقَها سرّاً إلى مسامع الشرطة من جهة، وإلى الأصدقاء من جهة أخرى. لكنّ مفعولها كلّها أُبطِل في الحال كي لا تنفجر بين عامّة الناس. وتمّ هذا بفضل قرارٍ اتُخِذَ على مستوى القمّة، أي خلال اجتماع عقدته السلطات العليا في المنطقة أدانت خلاله كلَّ شكٍّ قد يتطرَّقُ أو كلَّ ظنّ قد يحومُ، بل وكلّ تحقيق قد يُجرى حول تلك الساعة أو بعض الساعة

من الزمن، لأنّ هذا سيكون بمثابة الطعنِ في ذكرى حياةٍ أضحت الآن تُرى في مرآة الفضائل. لا بل إنّ كون النائب العام سقط ميتاً تحت جدارٍ عَرّش عليه الياسمين، وبين أصابعه زهرةُ ياسمين، حَمَل الأسقفَ على القولِ بأنّ لحظةِ الموت المقدّرة تزامنت مع تحقّقِ قدَرٍ صغيرٍ آخر مفعمٍ بالمعاني، ألا وهو قدرُ زهرةِ الياسمين التي ما إن جناها النائب العام حتّى أصبحت رمزاً لحياةٍ انقضت بلا شوائب تعكّرها، ولطيبةٍ مازال شذاها يفوح في قاعات العدالة، وبين أفراد العائلة وفي كلّ مكان كان النائب يرتاده، بما في ذلك مركز الأسقفيّة. وفي الحال حظيتْ هذه الفكرة بإنشاءاتٍ مختلفة: فقد قيل في محاضر الشرطة مثلاً إنّ توقّف النائب لِقطف زهرة الياسمين جعل الهدف سهلاً أمام المجرم القاتل (طلقة واحدة صُوّبت مباشرةً إلى القلب من مسافة مترين أو ثلاثة أمتار)، أمّا خلال التأبين فقد قيل إنّ جني تلك الزهيرة كان دليلاً على رهافة حسٍّ وميولٍ شاعرية، كان فارغا يتمتّع بها ويبرهن على ذلك من خلال سلوكه المهنيّ بل ومن خلال سلوكه الشخصيّ أيضاً. هذا ما حملَ الأستاذَ الجامعي سيراس على الاستشهاد بأبياتِ شعرٍ اسبانيّة: "قولوا لزهرة الياسمين البيضاء الصغيرة...."، ألقاها بحزنٍ وتباكٍ، وكأنّه نسيَ أن للياسمين خواصَّ سمعية تكاد تكون مؤكدة. كيف لا وقد سمعت حتى عريشة الياسمين أزيز الرصاص الذي قدّر خبراءُ الأمن أنّه كان أزيزاً قوياً، كذلك كما سُمِعت حشرجات احتضارِ النائبِ العام، هذا بينما لم تعلم الشرطة بالحادث إلا بعد انقضاء ساعات عديدة وبعدما تمكّنَ ثلثُ سكّانِ المدينة على الأقل من مشاهدة الجثة.

عندما عُلِّقَ التحقيقُ في قضيّة ريس، ظنّت الشرطة أنّ هذا هو الهدف الذي كان القاتل المجهول يريد الوصول إليه عن طريق اغتيال النائب العام فارغا الذي كان يقوم، وبهمّةٍ لا تنثني، بدور المدّعي العام فيها. بيد أنّه لا يوجد في التاريخ الإجراميّ للبلاد، أو على أقلّ تقدير في تجربة المحقّقين، سوابق من هذا النوع: إذ لم يسبق حقّاً لمدّعين أو لقضاة أن هُدّدوا أو قُتلوا بسبب موقفٍ اتخذوه خلال قضيّة ما أو بعد حكمٍ أصدروه. لكنّ قضية ريس تختلف عن غيرها لأنّها لا تقوم إلا على مجموعة من القرائن، كما أنّها تختلط بكثيرٍ من العواطف والأمور التي يلفّها غموضٌ حالك. لذلك فقد رأت الشرطة أنّه من المناسب إثارة الشكوك والقول إنّ شخصاً ما أراد تقويض اتّهامات فارغا المتتالية، أو على أقلّ تقدير تعكير المياه العكرة أصلاً. وبما أنّ أقرباء المتّهم وأصدقاءه (و ما أقلّ الأصدقاء حينئذ) ظهر أنّهم فوق أيّ شك أو تحت أيّ شك. فإنّ الأمر انتقل مباشرة إلى الأعداء، ونسب إليهم تدبير خطّة شيطانية معقّدة ترمي إلى إظهار ذنب المتّهم محتّماً أكيداً بل وإلى إقحام أشخاص آخرين كان القاضي المحقّق قد رأى أن يتركهم على هامش القضيّة. لكن سرعان ما خاب صيد المحقّقين حتّى في هذه الناحية.

عندما وصل التحقيق إلى نقطة ميّتة (أي إلى البحث في أمرِ تلك الساعة أو بعضِ الساعة التي قضاها النائب العام، والله أعلم كيف وأين، بل وإلى التجوّلِ في منطقةٍ غير واضحة المعالم والحدود، وبشكلٍ أطفأ شعلةَ الحماسةِ لدى الشرطة) ورغبةً في جعلِ الرأي العام يستعيد ثقته في فعالية الشرطة ـ والحقّ أنّ الرأي العام لم يشعر

البتّة بثقة من هذا النوع ـ أو رغبةً في حملِه على الاستسلام والتسليم بأنّ الأمر عويص، فقد قرر وزيرُ الأمن القومي إرسال المفتّش روغاس إلى مكان الحادث. الجدير بالذكر أنّ الصحافة تعتبر المفتّش روغاس مفتّشاً ثاقب النظر أكثر من كلّ مفتّشي الشرطة، بينما يرى زملاؤه أنّه ليس إلا أوفرهم حظاً. ولم ينس الوزيرُ أن يرسل عبر رئيس الشرطة وصيّةً إلى روغاس ضمّنها رغبات رئيس المحكمة العليا ورغبته الشخصية بأنّه على روغاس أن يعتبر الأقاويلَ التي قد تلقي بظلال تعكّر الإجلال الذي تنعم به ذكرى فارغا الراحل مجرّدَ أكذوبةٍ خرقاء. لأنّ ظلالاً من هذا النوع ستشكّل إساءةً تنال ظلماً كلَّ الهيئة القضائيّة، لذلك لا بدّ من كثير من التمعنّ ولابد من إبعاد تلك الظلال ما إن تلوح، كما لا بدّ من محوها إن استعصت وظهرت. لكنّ روغاس كان رجلَ مبادئ في بلد ليس فيه رجالُ مبادئ أو يكاد. لذلك فإنّه اقتحم في الحال، وحده وبكل تؤدة بالطبع، تلك المنطقة المحظورة، وكان سيخرج منها خروج كلب الصيد من ضباب الغيض وفي فمه صيدُه، بما يحتّم آثاراً لا يعلمها إلا الله تنْجَرّ ولابدّ على سمعة فارغا، لولا أن أوقفه عن البحث والتمحيص خبرٌ يقول إنّ القاضي سانسا قد وُجِدَ جثّةً هامدة على شاطئ آلس (طلقة مسدّس في القلب).

تقع آلس على بعد مائة كيلومتر تقريباً من المدينة التي كان يجري روغاس فيها تحقيقه حول مقتل فارغا، لكن لم يكن بوسعه الذهاب إليها دون إذنٍ من رئيسه. وقد طلب الإذن هاتفياً فتلقّاه تحريرياً. لذلك فإنّه لم يصل إلى آلس إلا بعد ثلاثة أيّام، عندما كانت شرطةُ المحلّةِ قد اعتقلت حوالي عشرة أشخاص وهمّت بأن تلقي تبِعَةَ

الجريمة على أحدهم رغم أنّه لا علاقةَ لأحدهم البتّة بالأمر. استعرض روغاس بسرعة الدوافعَ التي نسبتها الشرطةُ إلى المعتقلين، فوجد أنّها لا يمكن أن تدفع إلى القيام بجريمة قتل بل ولا حتى إلى التفكير بالقيام بها، إلا إذا اقترن الأمر بكثيرٍ من الجنون. لكنّ روغاس لم يشاهد شيئاً من علامات الجنون على أيّ من المعتقلين، بل إن شكّاً ساوره بأن آمِرَ الشرطة المحليّة بالذات، أي المفتّش ماغريس، هو وحده المجنون، لذلك عمل روغاس في الحال على إطلاق سراحِ جميع المعتقلين. حدث هذا بعد أن أخذ مكانه في أفضل فنادق المدينة، أي في فندق مطلٍّ على الشاطئ الرائعِ حيث لقي القاضي سانسا مصرعه خلال نزهته الانفراديّة، ثم إنّه انغمس في خمولٍ لم يتوانَ عن التباهي به بشكل لامسَ الفضيحة: كان روغاس يسبح في البحر ثم يخرج مع الصيّادين في مراكبهم، وكان يأكل السمك الطازج ويُكثر النوم. هذا بينما كان المفتّش ماغريس يحوم حوله بجنون وقلبه مفعمٌ بالحقد لأنّه وجد نفسه مجبراً على الإئتمار بإمرة شخصٍ يعادله في المرتبة لكنّه يعلوه في المكانة. كان يتلذّذ برؤية زميله يسير نحو الإخفاق، بل لابدّ أنّه سيُستدعى إلى العاصمة، وستنْجرُّ عليه سخريةٌ لابد أن تتناقل الصحف أخبارها.

لكنّ ذهن روغاس كان يعمل. فهناك قاضيان قضيا نحبهما خلال أسبوع واحد وفي مدينتين متجاورتين، بالطريقة نفسها وبطلقات مسدّس من العيار نفسه أُطلقت على الأرجح بالسلاح نفسه (لا تتوقف التقارير العلميّة الصادرة عن الشرطة عند هذه التفاصيل بأسلوب التأكيد): وفي هذا كلّه ما يحمله على العمل حول فرضيّة الانتقام، أي أنّه لابدّ أنّ هناك شخصاً ما، كان قد أدين ظلماً وأراد

أن ينتقم ويقتل متّهميه وقضاته. على أنّه لم يسبق أبداً للنائب العام فارغا وللقاضي سانسا أن عملا خلال كلّ حياتهما المهنيّة في قضيّة مشتركة واحدة. وقد تأكّد روغاس من الأمر بكلّ سهولة، مباشرةً بعد أن علم بالجريمة الثانية. ومع هذا فإنّ تلك الفرضيّة لم تفارق مخيّلته، خاصّة بعد أن وجد عناصرَ ساعدته على التمسّك بها: فلربّما كان القاتل قد أدين بحكمٍ بدائيّ كان فارغا هو المدّعي العام فيه، ثم أدين مرّةً أخرى بحكمٍ ثانٍ نطقه مجمعُ قضاةٍ كان القاضي سانسا أحد أفراده (أو بالعكس من ذلك: سانسا في الحكم البدائيّ وفارغا في الاستئناف)، أو أنّ القاتل أخطأ إحدى الضحيتين: نتيجة التباسٍ في معلوماته، أو لخديعةٍ دبّرتها ذاكرتُهُ، أو بسبب تشابهٍ في الأسماء (برقية: هل وجد، أو هل يوجد نائبٌ عام آخر باسم فارغا، أو قاض ثانٍ باسم سانسا: خاصّة وأنّ بعض المناصب تتقلّدها عائلات برمّتها ـ على مدى أجيالٍ متتالية)، أو ربّما أراد القاتل أن يخلط الأمور بمحض إرادته، ليجعل لعبته غامضةً عسيرةً على الفهم، وهويّتَه مجهولة، وذلك بأن يقتل أحد الشخصين، القاضي أو النائب، دون أيّ سبب كان (برقيّة: أسماءُ الذين خرجوا خلال الأشهر الستّة الأخيرة من السجن وكانوا محكومين في قضايا شارك فيها فارغا أو سانسا)، وعلى أيّ حال، وبدافع من التعلّق الأعمى بالعدد ثلاثة ممّا يناسب عصابيّته وعصابيّة الآخرين، شعر روغاس بحدسٍ عارم جعله يظنّ أنّ ضحيةً ثالثة لابدّ أن تقع، وستكون الفرصة مواتية عندها لأن يظهر الدليلُ الضروري ويتّضح حلُّ المشكلة. وكانت المشكلة مستعصية على أيٍّ حل. كان روغاس ينتظر، وكانت الضحية الثالثة تتقدُ في مخيّلته كأنّها أطياف وتخيّلات، أو كأنّها علامة مجرّدة تكاد أن تصبح اسماً، سمّاً، جنازة، إرثاً،

معاشاً تقاعدياً، بل وقبل كلّ شيء عنصراً ينطلق منه التحقيق الذي مازال إلى حدّ كبير هايماً في الهواء (أوصى الكاتب سافيو بالقبول ببعض أخطاء الآلة الكاتبة، لهذا قلنا هايما وليس هائماً).

ولم يَطُل انتظارُه. فبعد أربعة أيام فقط سقط في مدينة كيرو القاضي آزار. كان هذا رجلاً غريب الأطوار، متجهّم الوجه، قضى حياته من صباه وحتّى موته وهو يخشى عدوى الأمراض والعواطف. لذلك فإنّه لم يصافح البتّة أحداً من زملائه أو أحداً من المحامين. وعندما كان لا بدّ له أن يصافح شخصاً ما، كأن يمدّ رئيسُه الجديدُ يدَه للمصافحة، فإنّه كان يتألم ألماً مبرحاً لا يزول إلا عندما يتمكّن من الاختفاء خلف ستارة أو في مكان لا يرى فيه أحداً فيظنّ أنّ أحداً لا يراه، ثم يسحب زجاجةَ كحول ويغدق منها، وهو الشيء الوحيد الذي كان يغدق فيه العطاء، ليطهّر يديه الهزيلتين المعرورقتين الملطّختين كأنها أحجار. رغم هذا كلّه فقد اضطرّ كبير قضاة كيرو أن يخترع خلال حفل التأبين كنزاً من المشاعر الإنسانية قال إنّ آزار كان يخفيه خلف تلك المظاهر القاسية الخشنة. أمّا الكنز الآخر، الكنز الحقيقيّ، فقد اكتشفه ابن إحدى أخواته، وهو وريثه الوحيد، الذي هبط على كيرو ما إن سمع بنهاية خاله المفجعة، وكان سيبقى فيها مدّة لا يعلمها إلا الله، ضيفاً على السجن المحليّ، لو لم يطلق روغاس سراحه. كان الشابّ ماجناً ولم يتمكن من تقديم دليل دفاعٍ واحد يُبيِّن أين قضى تلك الليلة التي قُتِل فيها خالُه آزار. وبما أنّه كان واضحاً للجميع أنّ شخصاً ما رسَمَ خطّةً انتقاميّة أو جنونيّة وراح يقتل القضاة، فإنّ الشرطة بدأت بتطبيق شعائرها وتأدية مناسكها المألوفة، أي أنّها بدأت تضحّي بسرعة، بل وبشيء من المرح، بسمعةِ كلٍّ من رأى القتيلَ آخر مرة، أو كلٍّ من قد يستفيد من موته.

بعد أن ربح روغاس ثقةَ الشاب، حاول وكأنّه يساعده، بل وهو يساعده بالفعل، أن يبقى معه حتّى تمكّن من حصر كلّ الإرث، وتبيّن أنّ في الإرث مبلغاً يزيد عشرين مرة على الأقلّ عن مجموع الرواتب التي دفعتها الدولة للقاضي خلال اثنتين وعشرين سنة، هذا إذا اعتبرنا أنّ القاضي لم ينفق خلال اثنتين وعشرين سنة درهماً واحداً على مسكنه ومأكله وملبسه ومطهّراته. ولا يذكر الشاب أنّ القاضي كان يملك شيئاً ما حين تقلّد وظيفته الحكومية، لا بل إنّ الشاب كان يسمع أمَّه تحكي دوماً قصّةً مثالية عن فاقَةِ أخيها والجوع الذي عاناه خلال سنيّ شبابه وقبل أن يصبح قاضياً بأعلى رتبة وذا سمعةٍ لا ينال منها نائل. لهذا حاول روغاس التحقيق في مصدر تلك الثروة، وكان مقتنعاً بأنّه إذا لم يفضِ تحقيقُهُ إلى ما قد يساعده على فهمِ سبب الجريمة، فلا بدّ له على أقلّ تقدير أن يفهم أيّ نوعٍ من القضاة كان آزار هذا.

لكنّه ما إن بدأ روغاس يعمل حول فرضيّة آزار المرتشي ويتكلّم عنها مع بعض الناس، ويطلب من بعضهم الآخر معلومات حولها، حتّى وصل من العاصمة أمرٌ صارم بعدم الإلتفات إلى الأقاويل والانصراف إلى تتبّعِ آثارِ ذلك المجنون الثائر إن وجدت له آثار، ولمعرفة من ذا الذي راح يغتال القضاة دونما سبب. والحقّ أنّ فرضيّة المجنون الثائر بدأت تثير إعجاب المتربّعين على القمّة، من وزير الأمن إلى وزير العدل إلى رئيس المحكمة العليا إلى رئيس الشرطة. لا بل إنّ رئيس الجمهوريّة بالذات كان يسأل صباح كلّ يوم، حسب ما أسرَّ إلى روغاس رئيسُه، فيما إذا كان ذلك القاتل المجنون قد اعتُقل. وقد عجب روغاس كلّ العجب من أنّ الأمر لم يُلقَ حتى ذلك الحين في حوض السياسة: ولم تفعل هذا حتّى تلك

الصحف المستعدّة على الدوام لإلقاء تبعةِ كلّ جريمة نكراء غريبة على إحدى الطوائف الثوريّة العديدة التي كانت تفور بها البلاد.

ولحسن الحظ فإنّ المعلومات التي طلبها روغاس بُعيد موت آزار وصلت قبل أن يُبدي روغاس رأيَه المخالف أمام رئيسه: لقد أصبح مؤكّداً أنّ فارغا وآزار عملا معاً في محكمة آلغو الجزائيّة حوالي عامين. اختفى روغاس في الحال من كيرو: تماماً كما اختفى قبلها من آلس. وفقد الصحفيون آثاره، حتى تمكّن مراسلٌ محليّ من الإشارة إلى وجوده في آلغو. وهنا ثار لغطٌ وصِيغَت أغربُ الفرضيّات وأبعدها احتمالاً. ثم أصبحت هذه الفرضيات جنونيّةً عندما قُتِل في آلغو بالذات القاضي راستو. فهل كان روغاس يعرف أنّ القاتل سيصرع ضحيتَه الرابعة؟ وإذا كان على علمٍ بالأمر فلماذا لم يحاول منع الجريمة؟ أم أنّه حزرَ؟ أو أنّه نصب للقاتل فخّاً؟ ثم فشل الفخّ. لكنّ تقديم قاضٍ طُعماً ليس بالأمر المستساغ. أمّا صحيفة "الفتيل"، التي كان محرّروها يؤمنون إيماناً مطلقاً بالتجديد الاجتماعي العنيف وبقوى النحسِ القاسية المتصارعةِ فيما بينها، فقد أوحت أنّ لروغاس مقدرةً على جلب النحس. وسرعان ما انتقلت هذه الهمسة من قرّاء الجريدة القلائل إلى الكثيرين ممّن لا يقرؤونها لتصبح بعدها يقيناً واعتقاداً. لذلك فإنّ ثلث سكان البلدة، البالغين منهم على أقل تقدير، بدؤوا يتعوذون[1] ويلمسون حجبَهم وطلاسمَهم كلّما ذُكِر أمامهم اسمُ روغاس. استمرّ الأمرُ على هذا المنوال لمدّة أسبوعين كاملين. بعدها وخشية أن تنتقل

(1) يقوم الإيطاليون بمدّ إصبعي السبابة والخنصر عندما يريدون التعوذ من أمر يُذْكَرُ أو يجري أمامهم، وهم يكرهونه.

تهمةُ حيازةِ القوى السحريّة الخفيّة إلى جهاز الشرطة وإلى الوزارة التي يمثّلها جهازُ الشرطة، فإنّ وزير الأمن استدعى الصحفيّين فجأة ليشرح لهم نوايا الشرطة وروغاس، وليوضّح لهم سبب وجود المفتّش في آلغو قبيل مقتل القاضي راستو. قال الوزير إنّ روغاس ذهب إلى آلغو بعد اكتشافِه قرينةً كانت هي الوحيدة التي تجمع بين جريمتين من الجرائم الثلاث التي ارتكبت حتى ذلك الحين: والقرينة هي أنّ فارغا وآزار عملا معاً قبل عشر سنين ولمدّة سنتين كاملتين في محكمة آلغو الجزائيّة. أمّا أنّ القاتل نفّذ جريمته في آلغو بالذات فيُفسَّرُ بأنّ الصحف نشرت خبر وجود روغاس في المدينة، فأراد القاتل أن يتحدّى الشرطة: وستقبل الشرطة هذا التحدّي بل وستعمل في الحال حول القرينة التي وجدها روغاس حتى تتوصّل إلى معرفة هويّة ذلك القاتل المجنون.

أثارت تصريحاتُ الوزيرِ حفيظةَ روغاس حتّى إنّه كلّم رئيسَه حالاً بالهاتف وتوسّل إليه أن يسحب منه المهمّة إذا كان الوزير مصمّماً على أن يضع العصي بين عجلات عمله. لكنّ رئيسه واساه وأمره بمتابعة التحقيق. بيد أنّ ما كان يخشاه روغاس أصبح حقيقةً واقعة ما إن وصل جوابُ القاتل على كلام الوزير: فقد سقط القاضي كالامو في مدينةٍ بعيدة جداً عن آلغو، ولم تكن لهذا، كما عرف روغاس في الحال، أيّة علاقة مع أيٍّ من الضحايا الأربع السابقين. وهذا يعني أنّ القاتل، سواءً أجهزَ على القاضي راستو في آلغو بناءً على خطّة معيّنة ودون علم منه بوجود روغاس فيها، أو أنّه فعل فعلته وهو على علم بوجود روغاس فيها، بل وتحدّياً له، فإنّ ذاك القاتل أدرك الآن خطأه وزلّة قدمه وعمل بالتالي على تشتيت انتباه المفتّش عن ذلك المكان وعن تلك القرينة ليجرّه نحو الخلف، نحو متاهةٍ من المجّانيّة والجنون.

لكنّ روغاس لم يبارح آلغو. بل جمع ملفّات القضايا التي عمل عليها كل من فارغا كنائبٍ عام وآزار كقاضٍ، ثمّ صنّفها وأعاد جمعها بعد أن ألقى عليها نظرة متفحصة وسريعة وبطريقة بسيطة جدّاً. أي أنّه نحّى مجموعةً أولى مؤلّفة من تسعة عشر ملفّاً حُكِم في قضاياها بالبراءة. ثم نحّى مجموعةً ثانية مؤلّفة من خمسة وثلاثين ملف محاكمة أُدين المتّهمون فيها لأنّهم اعترفوا بذنوبهم أو لأنّ الشرطة أمسكتهم بالجرم المشهود أو لأنّ شهادات وإثباتات قاطعة أدانتهم، علماً أنّه فحص فحصاً دقيقاً أربعَ حالات من هذه المجموعة لأنّه وجد شيئاً من الزيف في محاضر الشرطة أو في أقوال الشهود. ورغم أنّ هذه الحالات الأربع لم تكن تهمّه بصورة مباشرة، ولم تكن أصلاً ضمن نطاق تحقيقه لأنّها لم تدلّ البتة على سوء نيّة القضاة بل إنّها ربّما دلّت على سوء نيّة الشرطة أو بعض الشهود، إلا أنّها ساعدته على تكوين رأيٍ بأنّه لا يصعب على المرء أن يميّز بين الحقيقة والكذب حتى وإن كانَ يقرأ كلمات ميّتة على ورق ميّت. وأنّ أيّ أمر، وإن ثبت في الكلمة المكتوبة، لابدّ أن يعيد إلى الأذهان المشكلة التي يرى الأساتذة أنّها أصبحت تنتمي إلى عالم الفنّ والشعر فقط. أعاد روغاس إلى أرشيف المحكمة الأربعة والخمسين ملّفاً التي نحّاها واحتفظ باثنين وعشرين ملّفاً أُدين المتهمون في قضاياها رغم أنّهم كانوا يصرّحون خلال استجوابات الشرطة والقضاء والمحكمة بأنّهم أبرياء. لقد أدينوا على أساس القرائن والظنون فقط.

حرّر روغاس بعدها قائمةً بأسماء المُدانين في تلك القضايا وأرفقها بالإشارات التي تساعد في العثور عليهم. ثم أرسل القائمة إلى مكاتب القضاء والشرطة التي يفترض أنّها تعرف مكان أولئك

الأشخاص، وفيما إذا كانوا موجودين في السجون أو خارج السجون. عرف روغاس بعدها أنّ أربعة عشر منهم مازالوا ضيوفاً على بيوتات العقاب التي ينطبق عليها هذا الاسم رغم وجود مشروعِ قانون لتغيير هذا الاسم البائس (والاسم فقط)، وأنّ ثمانية قد استعادوا حرّيتهم بعد أن قضوا مدّة العقاب أو بعد أن اختصرت هذه المدّة بسبب عفوٍ عام وما شابه ذلك أو بعد أن بُرّئت ساحتُهم في محاكم الاستئناف. ركّز روغاس انتباهه خلال ثمانية أيّام على أولئك الثمانية، أي على أوراق ملّفات قضاياهم. وفعل ذلك وكأنّه يلهو ويلعب: فهو كان يستخلص من تلك الأوراق العناصر التي يمكنها أن تبرهن على براءة المتّهمين، واستعمل في هذا الاستخلاص نوعاً من اللهو وحريّة التصرف، ذلك وهو يسخر من قيود العادات والتقاليد المهنيّة التي كانت تبرز باستمرار خلال تقديم عناصر الذنب المتناقضة.

وجد روغاس أنّ هناك في كلّ تلك القضايا عناصر حريٌّ بها أن تحمل القضاة على تبرئة المتّهمين، لأنّها أقوى من العناصر التي دفعتهم للإدانة والتجريم. ورأى أنّه كان من الظلم على وجه الخصوص استعمال عنصرِ "السوابق" في خمس قضايا من أصل ثمان، وذلك ضمن عبارة "مقْدِرة مؤكّدة على الإجرام". وقد سيقت العبارة بصيغةِ شهادةٍ قاطعةٍ جازمة. وهذا يعني أنّه إذا قام شخصٌ ما وهو في الثانية عشرة من عمره بسرقة التوت من بستان جاره، فإنّه سيصبح قادراً وهو في الثلاثين من العمر على أن يقتل بغرض السرقة. أمّا إذا كان التوت قد سُرِق من بستان الدير، فإنّ هذا سيحمل على الظنّ بأنّ السارقَ قادرٌ على قتل أمّه بعد مضي عشر سنوات. وهكذا دواليك فإنّ كلمة "السوابق" تستعمل بسهولةٍ في

هذا البلد، رغم أنّ هذا البلد ينعم بفكرٍ وأدبيّات تقوم على الأهواء المباغتة والتناقضات والأعمال غير المسوّغة والتغيّرات الجذريّة التي يتعرّض لها الأشخاص. ومع أنّ روغاس رأى أنّ استعمال "السوابق" يعتبر إهانةً للعدل وإعاقةً لمجراه، فإنّه توقّف عند ثلاث حالات لم يكن لأصحابها "سوابق"، ومن هذه الحالات الثلاث بدأ تحقيقه المباشر.

كان الأشخاص الثلاثة يسكنون في ناحية آلغو. وقد وصلت قضاياهم بعد لأيٍ إلى المحكمة العليا وبعد أن لجأ كلّ من الدفاع والاتّهام إلى الاستئناف بعد الاستئناف ودرجةً إثر درجة صعوداً في السلّم القضائيّ، بل وبعد أن دارت تلك القضايا خلال سنوات وسنوات دورات طويلة بالفعل إذا قيست بالزمن داخل زنزانة السجن، رغم أنّها قصيرة كنفخةٍ في الهواء عند قياسها بمقياس الدورات الفضائية الكونيّة المعتمدِ من قبل إدارةِ القضاء في البلاد. وصلت القضيّة بعد فترة إلى المحكمة العليا، وهناك لم يحم شكّ القضاة حول الأفعال التي أدين المتهمون بسببها، بل حول طريقة تطبيق القانون الذي أدينوا بموجبه. وهكذا أحيل المتّهمون إلى محاكمةٍ جديدة. وكانت النتيجة: تأكيد العقوبة على أحدهم، وزيادة سنتي سجنٍ للثاني، والبراءةُ للثالث. ومن هذا الأخير بدأ روغاس، لأنّه رأى أنّه يجب استبعاده في الحال، ذلك لما تخيّله عن شخصيّته التي تراءت له لدى قراءته ملفّ المحاكمة، ولنوع الفعلة التي برّأت ساحته في نهاية المطاف.

لم يكن للرجل بيتٌ ولا عمل. لم يكن هذا بسبب المحاكمة أو لأنّ سنوات السجن الأربع قد حطّمته. بل لأنّ هواية الخمول التي كان

يتبجح بها ويُنَظِّر لها جرّت إليه كثيراً من المصائب. وبما أنّ الخمول معروفٌ بأنّه أبٌ لكلّ الرذائل فقد رأت الشرطة ورأى القضاة معها خلال الدعوى البدائيّة أن لا مانع يمنع من أن ينسبوا إليه جريمة القتل بغرض السرقة. لم يكن في الأمر "سوابق" لذلك فقد لجؤوا إلى مسوّغ "الخمول".

وجده في الساحة تحت أشعّة الشمس، تحت قدمي تمثال الجنرال كاركو الذي انتزع قبل قرن من الزمان هذه المنطقة من براثن سلطانِ حاكمٍ مستبدّ ليضعها تحت إمرة سلطان حاكمٍ مستبدٍ آخر. أرخى الرجل قبّعته على عينيه، وجلس جامداً في استرخاءٍ كامل: ربّما كان نائماً. وقف روغاس أمامه فامتدّ عليه ظلّه. ثم رفع له القبّعة عن رأسه وكأنّما ليداعبه. فبادره الآخر بنظرة متسائلة مشبعة بالقرف. لم يكن نائماً إذاً. لكن سرعان ما حام في تلك النظرة ظلّ الشكّ. ففهم روغاس أنّه قد وُضِع في محرق بصر الرجل وأنّ هذا قد فهم أنّ روغاس مفتّش شرطة. لذلك فإنّه انقلب محترساً متوتراً، دون أن يغيّر وضعه المرتخي في ظاهر الأمر.

ـ كيف تسير الأمور؟ سأله المفتّش. كان في نيّته السؤال بلهجةٍ وديّة، فكانت لهجته وديّةً بالفعل. لكنّ كلامه بقي سؤالاً، بدايةَ تحقيق.

ـ لا تسير! أجاب الرجل.

ـ ما الذي لا يسير فيها؟

ـ كلّ شيء.

ـ وقبلها؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ قبل ماذا؟

ـ أعني قبل الآن: هل كانت تسير؟

ـ أبداً.

ـ يعني؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ يعني ها نحن هنا.

ـ دائماً؟

ـ ليس دائماً. أحياناً أجلس في ساحة السوق، وأحياناً أخرى في المقهى.

ـ بعض الرحلات؟

ـ ليتني أفعل. آخرُ رحلة قمتُ بها كانت إلى روس: على بعد اثني عشر كيلومتراً، سيراً على الأقدام، وقبل ثلاث سنوات.

ـ ما رأيك بعمليّات اغتيال القضاة؟ خاطبه روغاس بصيغةِ لغةِ الود[1]، لأنّه من النوع الذي ينتظر من رجالات السلطة أن يعاملوه معاملة المعارف القدامى، رغم ما في هذه المعاملة من قسوة.

ـ مؤسفة، قالها الرجل وكأنّه أدرك بأنّه قدّم جواباً غير مرضٍ فحاول جاهداً تحضير أجوبة أخرى مُرضية على أسئلة تالية. وكان الرجل ينتقل من حال التوتر إلى حال الخوف.

ـ النائب فارغا...بدأ روغاس حديثه.

---

(1) أي صيغة المخاطب المفرد، بينما تتم المخاطبة بين أشخاص لايعرفون بعضهم بصيغة الجمع، مثل: ما رأيكم؟

ـ كان مقتنعاً بأنّي أنا الذي قتلت ذلك الحانوتيّ. كان يجيد الحديث، ويتكلّم بكلام مُقنِع، طلب الحكمَ عليَّ بالسجن ثلاثين سنة. بل قال إنّه يأسفُ لأنّ حكم الإعدام كان قد أُلغي.

ـ والقاضي آزار؟

ـ حكم عليّ بسبع وعشرين، لكنّه لم يكن وحده، كان معه قاضيان آخران.

ـ أعرف ذلك. ومازالا على قيد الحياة. وأنت؟

ـ وماذا كان بوسعي أن أفعل؟ سُجنت. وكنت محظوظاً لأنّهم عيّنوا لي محامي دفاعٍ رسميٍ شاباً، كان يريد الحصول على الشهرة. فاستأنف الدعوى وتابعها حتى وصلت إلى المحكمة العليا. وهاأنذا هنا.

ـ وسنيّ السجن الأربع تلك؟

ـ انقضت.

ـ لاشكّ أنّها انقضت، لكنّك قضيتها ظلماً، أليس كذلك؟

ـ لقد قضيتُ اثنتين وخمسين سنة من العمر ظلماً، وتلك الأربع التي قضيتها في السجن لم تكن أشدّ وطأة عليّ من غيرها. ثم إنّ السجن آمِن.

ـ أي نوع من الأمن؟

ـ الأكل، والنوم، كلّ شيء بانتظام.

ـ والحريّة؟

ـ الحريّة هي هنا. قالها الرجل وهو يشير بإصبعه إلى وسط جبينه.

ـ لكنّك قلت للتوّ إنّك كنت محظوظاً لأنّهم عيّنوا لك محامياً استطاع تخليصك من السجن.

ـ ذلك مجرّد قول. لكنّها لم تكن مصيبة حتماً. قالوا إنّي قتلت رجلاً لأسرق نقوده، وقد أثبت المحامي أنّي كنت بريئاً من تلك التهمة: هذا هو حُسن الحظ. أمّا ما تبقّى...

ـ ثم قام بحركة من يده تدلّ على عدم الاهتمام، على اللامبالاة.

ربت روغاس على كتفه محيّياً. ثمّ ابتعد. وعندما التفت بعدما وصل إلى آخر الساحة، رأى أنّ الرجل أسدل قبّعته على عينيه من جديد واستعاد وضع الاسترخاء.

الشمس. الراحة. الخمول. كرامةُ الراحة، حضارةُ الخمول. لويس سيرنودا وكتابه[1] Variaciones sobra tema Mexicano صفحات جميلة. "الحريّة هنا". لا، لا، إنّهم لن يتركوا لك في نهاية الأمر حتّى تلك الحريّة.

أمّا الثاني فقد كانت أموره تسير على ما يرام، في اعتبارات الأحكام العامة على أقلّ تقدير: كان يملك كراجاً لميكانيك السيارات، وكان يعمل بلا انقطاع، وكان يربح، بل وكان يستثمر أمواله أيضاً في تجارة السيّارات المستعملة والجديدة، وكانت تجارته رابحة. لكنّ روغاس فكّر أنّ أمور الرجل السابق كانت أفضل، خاصّة بعد أن رأى هذا الثاني يخرج ملوّثاً ومتعرّقاً من تحت سيارةٍ كان يصلّحها.

---

(1) من مؤلفات الشاعر والكاتب الاسباني Luis Cernuda 1902-1963

لم يدرك الرجل أنّ روغاس مفتّش شرطة: فقد قال إنه مشغولٌ بسيارةِ سياحٍ أميركيين يجب إصلاحها في الحال، وإنّه لا يفهم وجهَ العجلة في طلب روغاس بأن يتحدّث إليه.

ـ شرطة. المفتّش روغاس.

تحوّلت القذارةُ والعرق قناعاً على الوجه، وامتقع الوجهُ فجأة. حسناً ـ قال ـ فلنذهب إلى هناك. ثمّ دخلا إلى غُريفة زجاجية: وكان فيها كرسيّان فأشار بأحدهما إلى روغاس ثم تهالك على كرسيّه كأنّه دمية من مسرح العرائس قُطِعت الخيوط التي تحملها، فلا مفاصل لها ولا روح فيها. تلمّس بعدها سجائره على الطاولة أمامه وأشعل لفافة منها وهو يحملق بالمفتّش بنظرات كأنّها تنطلق من وراء جدار أو من أعماق جحر. وكانت يداه ترتعشان.

ـ أنا هنا لإجراء تحقيق بسيط: لكنّي لا أرجو منه أيّة فائدة. ذلك أنّ سيرَ العمل يتطلّب أن نستبعد منذ البداية كلّ الأمور البديهيّة، وإلا فإنّنا سنجد هذه الأمور تسعى بين أقدامنا لتتعثّر بها خطانا بعد أن نكون قد نسيناها كليّة...مثلاً...ما إن دخلتُ محلّك حتى أدركتُ أنّه لا يمكنك أن تترك محلّك يوماً واحداً، بل حتى لبضع ساعات، لأنّ العمال سيدركون الأمر وسيتساءلون عن السبب، عن التسويغ. "صاحب العمل ليس هنا؟" "هل هو مريض..هل ذهب إلى حفل زواج؟"، "هل طلبه مكتب الضرائب"، "ومتى سيعود؟"، يعني أنّ الجميع سيلاحظون غيابك.

ـ سيلاحظونه ـ قال الميكانيكيّ وقد استعاد بعض أنفاسه.

ـ لكن هل عرفت لماذا جئت بحثاً عنك؟ ـ سأله روغاس.

ـ أظنّ ذلك.

ـ أخبرني إذاً، هل ابتعدتَ عن مكانك خلال هذه الفترة لساعات أو أيّام تكفي لوصولك إلى أماكن مثل آلس أو كيرو؟..

ـ لا، على الإطلاق...

ـ وبالتزامن مع مقتل النائب فارغا أو القضاة سانسا، آزار، راستو؟

ـ أكرّر، لا، على الإطلاق...

ـ لكنّك تذكُرُ ولابدّ النائب فارغا، القاضي آزار؟

ـ بل إنّي أراهما في أحلامي ـ ثمّ مرّر كفّه على وجهه كمن يستيقظ من حلمٍ يريد أن يمحو ذكراه.

ـ هل تعتبر نفسك ضحيةً من ضحاياهما؟

ـ ليس من ضحاياهما هما، بل مجرّد ضحيّة.

ـ وبماذا شعرت عندما عرفت أنّهما قُتلا؟

ـ لاشيء. القضية شبيهةٌ بمسنّنات آلةٍ، وقد وقعتُ بين هذه المسنّنات. كان بوسعها أن تمزّقني إرباً، لكنّي خرجت منها حيّاً.

ـ لكنّك كنت بريئاً.

ـ هل تظنّ ذلك فعلا؟

ـ إنّي هنا لأنّي أظنّ ذلك بالفعل.

ـ نعم..كنت بريئاً. لكن ماذا يعني أن أكون بريئاً ثم أقعُ بين مسنناتِ الآلَةِ؟ إنّه لا يعني شيئاً على الإطلاق، أؤكّد لك ذلك. وبعد حينٍ فإنّ ذلك لن يعني شيئاً حتى بالنسبة لي أنا بالذات ـ هذا

كما لو أنّك اجتزت شارعاً فدهستك سيارة. بريء. لكنّ السيارة دهستك: ما معنى هذا، ما معنى أن تقول هذا؟

ـ لكن ليس الكلُّ أبرياء ـ قال روغاس ـ أعني أولئك الذين يقعون بين مسننات الآلة.

ـ بالطريقة التي تسير بها هذه الآلة..قد يكون الكلّ أبرياء.

ـ بوسعنا إذن أن نقول أيضاً: إذا كانت البراءة على هذا الشكل.. فقد نقع كلّنا في الآلة.

ـ ربّما. لكنّني لستُ الكنيسة. لهذا فإنّي أرى الأمور بصورة مختلفة. هنا فكّر روغاس: إنّه قادر على ترتيب أفكاره، وعلى الوصولِ بسرعة إلى نتيجة. ثم إنّ قسوته على الرجل زادت عندما حدَّث نفسه: "لابد أن السجن قد أفاده". ثمّ قال: ـ فهمت ـ واستعاد لهجته المهنية:

ـ إنّك لم تغادر البلدة إذاً في الفترة الأخيرة مطلقاً، لم تترك عملك يوماً واحداً؟

ـ يوم الأحد طبعاً، يكون المحلّ مغلقاً، ومع هذا فإنّي أبقى هنا لأراجع الحسابات، لأنظّم الأمور، وإذا أتى شخص ما لإجراء إصلاحٍ بسيط فإني لا أرفض طلبه...

ـ الأحد.... ـ قال روغاس: لكنّ واحدةً من الجرائم التي كان يحقّق فيها لم تحدث يوم أحد. ـ وكيف تقضي أمسيات أيّام العمل؟

ـ بعد العاشرة أغلق المحل وأذهب إلى المطعم.

ـ أيّ مطعم؟

ـ "الصيّاد".

ـ كلّ مساء؟

ـ كلّ مساء، فأنا أعيش وحيداً.

ـ لماذا؟

ـ ألم تقرأ ملفّ المحاكمة؟

ـ نعم لقد قرأته. فهمت ـ ثم نهض. ـ يجب أن تعرف أنّه عليَّ أن أحقّق حول مجرى أمسياتك في "الصيّاد".

ـ سيؤسفني الأمر لأنّ الناس سيرغبون في الكلام عنّي وعن قضيّتي وعن شكوكٍ جديدة تثيرها الشرطة حولي. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ إنّها الآلة.

ـ سأحاول أن أؤدّي العمل بحرص وتحفّظ.

ـ أشكرك.

خرج روغاس من "الصيّاد" عند الثالثة عصراً: أكلَ وجبةً لذيذة مؤلّفة من نصف أرنب بريّ مطبوخ بطريقة الحامض الحلو[1]، وتناول زجاجة نبيذ أحمر قويّ جداً رغم أنّه برخاوة الياسمين، كما أنّه تحقّق بصورة تزيل كلّ شكّ من صحّة أقوال الميكانيكيّ حول حضوره إلى "الصيّاد". لذلك فقد شعر بسرور عارم وبثقة بالغة في النفس: فهو ينتمي إلى تلك الفئة المتزايدِ عدَدُها باستمرار والتي تنظر إلى الصيد والدجاج البريّ والخبز البيتيّ ونبيذ البراميل نظرتَها

(1) صلصات ووجبات في المطبخين الإيطالي والفرنسي يستعمل فيها بصورة أساسية الخل والسكر معاً.

إلى تمائم مقدّسة متوارثة عن العهد الذهبيّ، كما ظنّ أنه بلْوَرَ في الشخص الذي سيحقّق حوله، ما قد يسمى بالمعطيّات المثاليّة التي تساعد على القيام بما قد يسمى أيضاً بالجريمة المثالية. ثم إنّ عمليّة البلْوَرَة تلك، والتي لا تختلف كثيرا عن عملية الحبّ (ستاندال Dr. L amour)، كانت قد تولّدت عند روغاس خلال مطالعاته المتكرّرة لنصوص الدعوى، وخلال أحاديثه مع كلّ الذين كانت لهم علاقة ما بالقضية، وخلال تجميعه لأدقّ المعلومات وأوسعها حول بطلها.

أمّا الوقائع كما نقلها إليه زميله كونتريرا الذي كان يشغل منصب مدير الشرطة في آلغو (ولم تكن تلك مجرّد وقائع، فقد كانت تمتدّ إلى حيّز الانطباعات والأحكام أيضاً): فهي أنّه في مساء 25 تشرين ثاني نوفمبر 1958 تقدّمت السيّدة كريس إلى مركز الشرطة. طلبت التحدّث إلى المفتّش. وقد لاحظ المراقب والمفتّش بعدها أنّها كانت مضطربة، هائجة، فزعة، وكان في يدها غطاء أسطوانيّ الشكل، تبيّن ـ ما إن فتحتْه ـ أنّه وعاء معدنيّ مدهون. نزعت السيّدة الغطاء ووضعت الوعاء أمام عينيّ المفتّش: نظر المفتّش فرأى خليطاً من الحبوب بلون الشوكولاته.

ـ رزّ أسود ـ قالت السيّدة.

ـ ماذا؟ ـ سألها المفتّش.

ـ رزّ بالشوكولاته ـ فسَّرَت السيدة ما قالته للتوّ ـ ألم تأكل مثله البتّة؟

ـ أبداً.

ـ أما أنا فإنّي مغرمةٌ به.

ـ لابدّ أنّه لذيذ ـ قال المفتّش وقد بدأ يشعر بنوع من القلق.

ـ إنّه لذيذ بالفعل. لكن ليس هذا الطبق من الرزّ بالذات ـ أردفت السيّدة.

ـ لماذا؟ سألها المفتّش وهو يتصنّع الاهتمام كما لو أنّه يلاعب طفلاً. ـ هل هناك ما يضير في هذا الطبق من الرزّ؟

ـ فيه سُمّ ـ قالت السيّدة، وهي فزعة، متباهية بما تقول.

ـ آه، السمّ! قال المفتّش وكأنّه يساير لهجتها بعد أن أصبح واثقاً من أنّها مجنونة. ـ ومَن وضَع السمّ في الرزّ؟

ـ لا أدري ـ قالت السيّدة ـ لكنّ الهرّ مات.

ـ آه، الهرّ.. ومن يعنيه أن يموت ذاك الهرّ؟

ـ لا أحد على ما أعتقد: خاصّة وأنّي أنا التي قدّمت الرزّ للهرّ.

ـ كنت أنتِ إذاً، ولماذا؟

ـ لأنّي لم أكن أعرف أنّ فيه سمّاً.

ـ احكي لي الأمور بالترتيب ـ قال المفتّش وهو يفكر أنّه لابدّ سامعٌ لقصةٍ إمّا أن يدوّنها في المحضر أو أنّه سيستدعي سيارة إسعاف. رغم أنّ جوابها الأخير جعل ظنونه حول جنونها تتلاشى. وبالفعل فقد بدأت السيّدة تروي الأمور بالترتيب.

زوجها صيدليّ وهي تساعده في الصيدليّة. يتبادلان مكان العمل، خاصةً وأنّ أطباء هذه الأيّام قلّما يكتبون وصفات على الطريقة القديمة التي تتطلب تحضير شيء من هذا وشيء من تلك المساحيق أو الأعشاب المغليّة، وعلى أيّ حال فهي أنجح من

زوجها في تركيب العقاقير الخاصّة لأنّ ذاكرتها أقوى من ذاكرته. عندما تنزل إلى الصيدليّة يصعد الزوج إلى البيت أو يهرب نحو النادي ليلعب البلياردو، لكنّه غالباً ما كان يصعد إلى البيت لأنّه يحبّ أن يطبخ الطعام، والحقيقة أنّه يجيد بالفعل طبخ بعض الوجبات. مثل الرزّ الأسود. بل إنّ أحداً لا يستطيع أن يضاهيه في إعداد هذه الطبخة. وهي فخورة بالأمر. في ذلك اليوم حضَّر الصيدليُ الرزّ الأسود، ولم يخبرها بالأمر بعد أن عاد إلى الصيدلية. وهكذا فإنّها فوجئت بالرزّ الأسود في المطبخ. كان قد حضّره ونمّقه على شكل صدَفَة بحرية، وكان أسود، لماعاً في الصحن المزهر، وكانت تفوح منه رائحة القرفة، التي وضع منها الكثير في الطبخة. لم تتمكّن هي من مقاومة شهوتها والامتناع عن تذوّق شيء من الرزّ. لكنّها شعرت تلك المرّة بنوع من الإلهام الذي كان إلهاماً إلهيّاً بكلّ تأكيد. وكان الهرّ قد لحق بها من الصيدليّة حيث كان يبقى عادة. كان يموء، وكان شارباه يهتزّان شهوةً بسبب رائحة القرفة. لذلك فإنّها دفعت إليه بصورة عفويّة بملعقة من الرزّ، رمَتْها أمامه على الأرض.

ـ لماذا؟ سألها المفتّش ـ لماذا على الأرض؟ ـ خاصّة وأنّ زوجته ما كانت لتفعل أبداً مثل هذه الفعلة، بل إنّها كانت تغضب عندما كان الأطفال يلقون بقطع اللحم إلى الهرّ الذي كان يقبع تحت مائدة الطعام. (هنا فكر روغاس أن زميله كونتريرا قد تمكّن بفضل زوجته من طرح السؤال الوحيد ذي المغزى خلال كلّ التحقيق).

ـ لقد أجبتك: بصورة عفويّة، كان إلهاماً.

ـ أنا لا أؤمن بالعفويّات التي تناقض العادات، ولا حتى بالإلهامات ـ قال المفتّش ـ ألم تشعري بأمرٍ ما أثار شكوكك فحملك على التصرف بتلك الطريقة؟

ـ ربما كانت رائحة القرفة الواخزة.

ـ جائز ـ قال المفتّش وهو يشحن شكوكه في حمحمات متتالية ـ على أيّ حال..أكملي..والهرّ؟

ـ أكلَ الهرّ بنهمٍ واضحٍ ملعقة الرزّ الأسود حتى إنّه لعق الأرض ومسح كلّ أثر عليها، ثم رفع عينيه منتظراً المزيد وهو يموء مبتهلاً، لكنّه ما لبث أن تربّع والتفّ على نفسه وهو يلهث مثل آلة موسيقيّة. لكنّ مثال الآلة الموسيقيّة يحضرني الآن، أمّا حينها فقد تصوّر في انطباعي بأنّه كمٌّ فرْوةٍ ينقلب من تلقاء نفسه.. ثم إنّه قفز مثل النابض ووقع على جنبه بعد أن استطال وتصلّب وتمدّد على الأرض.

ـ وأنتِ؟

ـ أنا متُّ من الخوف. لكنّي كتمت صرختي.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري، حينئذ لم أكن أدري. أمّا الآن، فأستطيع أن أقول بفكرٍ بارد إنّ السبب يكمن في بارقةٍ لمعت في ذهني.

ـ الشكّ بأنّ زوجك هو القادر فقط على وضع السمّ في، ما هو اسمه؟

ـ في الرزّ الأسود ـ أصلحت السيدة أقوالها ولم تجب على السؤال. كانت الآن هادئة. كانت امرأة جميلة عمرها بين الثلاثين والأربعين سنة، هذا ما لاحظه المفتّش وهو يراقب جسمها الراعش المتوتر.

ـ لكن لماذا فكرتِ بالسمّ؟

ـ وبماذا بوسعي أن أفكّر؟

ـ تموت القطط كما يموت الناس: في الشارع، اللقمة في الفم، أو وهم يشعلون سيجارة..

ـ الهرّ الذي يدخّن سيجارة...ـ قالت السيّدة، وقد ارتسمت على وجهها نصف ابتسامة ـ العفو، لقد تخيلتُ لافتةً معلّقةً على مدخلِ مقهى باريسيّ.

ـ ذاك كلب: الكلبُ المدخِّن ـ قال المفتّش مستاءً ـ على أيّ حال يمكن أيضاً للقطّ أن يموت فجأة: ينتهي من أكل الرزّ الأسود ثمّ يموت. فكيف لم تفكري بأنّ قطّك مات فجأة؟

ـ لا أدري، ربما لأنّي بدأت أشك بمحبّة زوجي لي.

ـ بمحبّته؟ لكنّ هناك فرقاً شاسعاً بين الشكّ بالمحبة واليقين المباغت بأن زوجك دبّر لك الموت داخل الرزّ الأسود...

ـ لم أتكلم عن أيّ يقين، إنّها مجرّد انطباعات، حدس، مخاوف. أمّا اليقين فيأتي بعد التحليل. وهاأنذا أحضرت هنا الرزّ الأسود والقطّ أيضاً، وضعته داخل كيس وهو في صندوق السيارة. ولا أرى ضرورةً لمواصلة الحديث عن انطباعاتي قبل معرفة نتائج التحليل، لهذا فإنّي أكتفي الآن بالقول: إنّي أعتقد أنّ محاولةً قد دبّرت ضدّ حياتي، وإنّي لا أعلم من الذي قام بها. هذا إذا كان القطّ قد مات مسموماً بالفعل، وإذا كان الرزّ الأسود مسموماً...

لقد مات الهرّ مسموماً، وتمّ العثور في الرزّ الأسود على سمٍّ يكفي لقتل عشرة أشخاص، ولم ينكر الصيدلي أنّه حضَّر الحلوى،

بل إنّه استبعد أن يكون بوسع أيّ كان ـ باستثناء زوجته ـ أن يضيف سمّاً للحلوى. وثبت في التحقيق وبعد مراجعة سجلات الصيدليّة أنّ كميّة السمّ الموجودة في الحلوى هي الكمية نفسها التي اختفت من الصيدلية، أمّا على القارورة فلم توجد إلا بصمات الصيدليّ. كما تمّ العثور في جيب ثوبه الذي يستعمله عادة في المنزل (والذي كان يرتديه عندما كان يحضّر الطعام) على الورقة التي نقل فيها السمّ، أمّا الدليل الخطير فكان رسالةً وُجدت في محفظته كتبها إلى زوجته (ورأى الخبراء أنّه تمّ تقليد الخط بكلّ حنكة، لكنّهم أنكروا أصالته): "لا أستطيع العيش بعد الآن، هذا لا علاقة له بك، ولا ذنب لك في هذا، لذلك لا تندمي أبداً، وعيشي في سلام".

لم يكن هناك دافع فعلي، هذا بغضّ النظر عن انطباعات الزوجة عن نقصان المحبة (ولم تنطق بتعبير آخر البتة، بل إنها رفضت بخجل شديد أيّة إشارة إلى العلاقة الجنسيّة)، لكنّ الله يدبّر عندما يبدو أنّ في الأمر بعض النقص، إذ سرعان ما وصلت رسالة من مجهول وفيها إشارات قيّمة: فقبل عشرة أيام أو خمسة عشر يوما توقّف الصيدليّ مع امرأة مشكوك في فضائلها وأسرَّ لها شيئاً ما. وعندما استُدعيت المرأة إلى مركز الشرطة نطقت بسهولة بالغة السرّ الذي استودعه إياها الصيدليّ: أنّ زوجته "باردة". ولم ير المفتّش أنّه يمكن لزوجٍ ما أن يقضي على زوجته لمجرّد أنّها "باردة"، فلم يكن هذا في نظره دافعاً يمكن الاعتماد عليه: كلّ النساء "باردات"، لكنه استخرج السرّ ونقله دون أيّة إضافة إلى القاضي المحقّق الذي كانت أحلامه مفعمة بنساء "حارّات" إلى جانب المرأة "الباردة"، لهذا فسرعان ما تحولت آثار برودة السيّدة كريس مع زوجها إلى قاعدةٍ بنى عليها كلّ من النائب فارغا والقاضي آزار ورفاقهما عقوبةَ

خمس سنوات سجنٍ بتهمة محاولة القتل، وقد أكّد الاستئناف فيما بعد هذا الحكم وكانت الجلسة برئاسة القاضي ريكس الذي تقلّد بعدها منصبَ رئيس المحكمة العليا.

اتخذ الصيدليّ كريس خلال المحاكمة التي دافع عنه خلالها محام غير مقتنع كلّ الاقتناع ببراءته، موقفاً بدا أنّه موقف المزدري، قال إنّ متّهميه وقضاته إذا حقّقوا بنور العقل فإنّهم لن يجدوا ما يصدّهم عن التفكير بأنّ كلّ القضية كانت من تدبير زوجته. أثار الكلامُ عن نور العقل النائبَ والقضاة. وعندما سأله النائب إذا كانت زوجته تحبّ القطّ، اعترف الصيدلي بالمحبّة ـ وهل كانت تحبّه شديد الحبّ؟ ـ سأله فارغا من جديد، فأجاب كريس بأنّه لا يستطيع تحديد درجة المحبّة، ثمّ أضاف ساخراً ـ كان يبدو أنّها كانت تحبّني أيضاً. وبما أنّ التحدّث عن نور العقل واستخدام السخرية أمران ليس من حقّ المتّهم استعمالهما، فقد أشار فارغا إلى كَلْبيَّةِ الظنين وقسوتِه، ثم أعلن: إذاً، حتى لو قبلنا جدلاً بأنّ السيدة قادرة على رسم وتنفيذ خطة جهنّميّة مثل هذه (ولماذا نقبل بالأمر طالما أنّ الزوج بالذات لم يتمكن من إظهار أيّ دافع يدفعها للإقدام على هذه الفعلة، أو من ذِكْرِ مصلحتها في فعلها)، فهل من الممكن أن نفكّر بأنّها قادرة على التضحية بذلك الحيوان البريء الذي كانت تحبّه حبّاً جمّاً كما اعترف بهذا ذاك الرجل الذي حاول أن يسقط عليها التهمةَ التي بدأت تُحيط به؟ ـ وثار في الحال لغطٌ في القاعة يستنكر ويدين. بل إنّ رئيسة جمعيّة الرفق بالحيوان التي تابعت كلّ الجلسات بصفتها المذكورة ولكونها صديقة للسيّدة، صرخت ـ مستحيل ـ عندها أشار المحامي للصيدليّ إشارةً تعني بأنّ الدعوى قد خسرت خسراناً مبيناً.

عقب انتهاء محاكمة الاستئناف اختفت السيّدة كريس. اختفت بغتة، دون أن تودِّع حتّى صديقاتها اللائي أحطنها برعايتهنّ خلال المحاكمة المحزنة التي عانت من وقائعها. بل إنّ مركز الشرطة لم يتوصل إلى معلومات تؤكّد وجودها على قيد الحياة. هذا رغم أنّ المفتّش كونتريرا بدأ حينها بالتفكير والتأمّل بنظريّة كونّها في قرارة نفسه. نعم، كانت هناك شكوك معيّنة تعتريه أثناء التحقيق، لكنّها كانت مجرّد شكوك لا تستند إلى معطيّات فعليّة، وكانت قد راودته بسبب تداخلات الأدلّة التي ظهر أنّها مصطنعة بعض الشيء، وبسبب ذلك السأم الذي لمحه في حياة الزوجين المشتركة الخالية من أيّة محبّة، السأم اليائس، الواضح في نظر الزوجة أكثر ممّا هو عليه في نظر الزوج. أما وقد عرف أنّ الزوجة اختفت، فقد بدأت الشكوك تدعم نظريته: لقد حاكت المرأة ذاك الجرم وخرجت منه نقيّة اليدين. لقد تركت للشرطة والقضاة أن ينفّذوا رغبتها في التخلّص من زوجها مدّةً تكفيها لتختفي وتتوارى عن الأنظار. وبما أنّ المرأة، أيّة امرأة، لا تختفي وحدها، كما يرى كونتريرا، فلابدّ أنّ هناك شخصاً ما تمكّنت السيدةُ من إخفائه من قبلُ ومن بعدُ في الظلّ البعيد، الغامض، المستور. رغم أنّ كونتريرا حاول دونما نتيجة أن يكتشف أمراً ما ضدها.

بعد أن قضى خمس سنين في السجن، عاد الصيدليّ إلى بيته. ولم يكن يتوقّع بطبيعة الأمر أن يجد زوجته تنتظره قرب المدفأة. كما أنّه لم يشغل بالَه ليعرف أين انتهى بها الأمر. بل صفّى الصيدلية وباعَ كلّ ما يملك عدا البيت الذي كان يسكنه والذي كان عزيزاً عليه رغم كلّ ذكرياته التعيسة عن الرزّ الأسود والقطّ وسنين قضاها فيه مع زوجته، التي لابدّ أنّه يرى الآن كلّ ذكرياته معها في مرآةٍ

الخيانة الباردةِ البائسة. كان لا يخرج إلا نادراً، ونادراً ما كان يبحث عن القلّة من أصدقائه الذين كان ذات يوم يلعب معهم البلياردو. كانوا يمرّون على الصيدليّة كلّ مساء دون استثناء، حيث كانوا يجلسون ليلخّصوا معاً أحداث اليوم وليستعيدوا أبرز ذكرياته.

تأكّد روغاس قبل خروجه من المطعم، من أنّ كريس موجود في البيت. لأنّ بيت كريس كانّ قد وُضع منذ ثلاثة أيّام تحت المراقبة المشدّدة. وقد ساعد على إحاطة المراقبة بالسريّة التامة وجودُ مقهى مباشرةً تجاه البيت، فضلاً عن قلعةٍ تعود للعصور الوسطى مهدّمة موجودة على طرف البيت، وبيت لرقيب الشرطة على طرفه الآخر. كان في البيت. ومن هناك رآه يقترب، مساء الأمس، ساعة المغرب، نحو الشرفة وهو في ثياب البيت (ربما كان يحضّر الرزّ الأسود ـ فكّر روغاس). وقد بقيت الأنوار مضاءة حتى ما بعد منتصف الليل. بعدها لم تظهر أيّة إشارة تدلّ على وجوده في البيت. لكنّه كان موجوداً فيه.

عندما وصل روغاس أشار إليه الرقيب بحركة خفيّة تعني أنّ كريس موجود في البيت. بحث روغاس على الباب عن زرّ الجرس. فلم يجده. فرفع الدقّاقة المصنوعة على شكل رأس أسد ثمّ تركها تهوي لتعود إلى مكانها. تردّد الصدى ورجع أصمَّ من الممر، ثم تبعته موجةٌ من الصمت الشديد، فأحسّ روغاس أنّ كريس قد خرج. ومع ذلك فقد واصل الضرب على الدقّاقة أقوى فأقوى. ثمّ استدار نحو الحارس المُخبِر وناداه بحركة من يده. فجرى الرجل نحوه وهو يحمل كأس الشراب الذي كان يتنعم باحتسائه، ثم قال بلهجة غضب ودهشة ـ لابدّ أنّه موجود ـ وبدأ

يقرع بجنون متصاعد. ـ كفى ـ قال روغاس. خاصّة وأنّ الوضع بدأ يصبح مضحكاً في عيون روّاد المقهى الذين بدؤوا يدركون معنى تعاقب رجال الشرطة على كؤوس الشراب الرخيصة.

ـ كان عليّ أن أتوقّع هذا ـ قال روغاس: ولم تكن هذه إشارة إلى كريس بل إلى كلّ من كان يراقبه منذ ثلاثة أيّام ومعه أمرٌ باعتقاله إذا حاول الهرب. لكنّ هذه ليست المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة.

ـ لابد أنّه في الداخل: ربّما كان نائماً، أو ربما كان يريد أن يخدعنا لنصدّق أنّه غير موجود ـ قال الشرطي.

ـ جائز ـ قال روغاس ليظهر لطيفاً مع ذلك الرجل المضطرب المنهك اللاهث وكأنّه عدّاء قرب خطّ النهاية.

ـ ماذا نفعل؟ ـ سأل الشرطي.

ـ عد إلى المقهى ـ قال روغاس ـ سأعود هذه الليلة ومعي أمرٌ بتفتيش البيت وسأصطحب معي حدّاداً ـ ثمّ ذهب وهو يتجنب النظر إلى المتفرّجين.

لقد ذهب كريس. ولابد أنّه أدرك أنّه كان مراقَباً، فانتهز فرصة ابتعاد الرقيب برهة من الزمن ليخرج من البيت بكلّ هدوء وطمأنينة. ولابدّ أنّه تمكّن من دراسة عادات مراقبيه خلال اليومين الفائتين، ليصبحَ قادراً على الهرب في اليوم الثالث. ولم يكن بحاجة إلى مقدرة فائقة: لأنّها أصبحت عادةً من أرسخ عادات هيئة الشرطة تركُ من يراقبونهم يفلتون من رقابتهم ويهربون. يعود سبب هذه الظاهرة في شكلها الخارجي إلى التقاعس الشائع منذ القدم، لكنّ لها في واقعِ الأمر جذوراً خطيرة تمتد في عجزِ رجالِ الشرطة وكثيرٍ

من قادتهم عن التسليم بإمكانيّة وجود شخص ما تجب مراقبته فقط وليس اعتقاله. خاصّة وأنّ البنية التنظيميّة للشرطة كانت حتّى سنين خلت بنيةً قمعيّة محضة، وقد بقيت الحالةُ النفسيّة المرافقة لهذه البنية وعاداتها، على حالها في هيئة الشرطة.

مع أنّ روغاس كان يقول لنفسه ويكرّر القول بأنّه كان يتوقع هذا الأمر، إلا أنّه شعر بخيبة أمل عارمة لأنّه لم يجد كريس: خاصّة وأنّ صاحبه هذا خرج بكلّ هدوء من بيتٍ كان بوسع مراقبٍ أعمى أن يراه وهو يغادره، ثمّ لأنّ هذا الهرب، إن كان هرباً بالفعل، لابدّ أن يعقّد عليه الأمور بصورة لعينة. بيد أنّه جائزٌ ألاّ يكون هرباً: فليس من المستبعد أنّ كريس لم يلاحظ شيئاً فذهب دون دراسة ودون احتراس، بل وربّما تحت أنظار الحارس الذي نسي تحت وطأة النعاس، وبتأثير نشوة العصير خلال هلوسات الظهيرة، نسي سبب جلوسه لساعات طويلة في المقهى، ولم يرَ في الرجل الذي عليه أن يراقبه إلا رجلاً خرج من بيته لقضاء بعض حوائجه أو للتنعّم بظلال أسوار المدينة. ثمّ، وهذا هو الأهمّ، لا يُعتبر مذنباً كلُّ من يهرب عندما يشعر أنّ الشرطة تهتمّ به. بل على العكس: لأنّ المذنبين الفعليّين يبقون في مكانهم حتّى يتحوّل انتباه الشرطة إلى مذكّرة اعتقال، ولن يتوانوا بعدها عن الاعتراف بالذنب ليتمكنوا من الانتقال من حماية الشرطة إلى حماية القضاء، لأنّ القضاء أكثر أماناً وأشدّ ضماناً. ففي القضاء يحتاج حتى الاعتراف الصريح إلى أدلّة وبراهين قلّما تكون موجودة. أمّا الأبرياء فيهربون. ليس كلّهم بالطبع. لهذا فمن المنطقيّ أن يهرب شخصٌ بريء، مثل كريس:

فهو دخل السجن مرّة، وهو بريء على الأرجح، لكنّه مدان على أيّة حال بأدلّة جرَّمته رغم كونها واهية. لقد هرسته مسنّنات آلة القضاء والشرطة، ولم يخرج من بينها إلا بعد خمس سنين ولم يتمتّع بعد هذا بلذّةِ سماعِ حكمٍ يعلن براءته أو يؤكّد على أقلّ تقدير عدم وجود أدلّة تثبت الجريمة.

لم يكن روغاس واثقاً أنّ كريس قد أدين رغم براءته، لكنّه لو كان في محلّ زميله كونتريرا الذي حقّق في الحادث وسلّم كريس إلى القضاء بعد أن غسل يديه مثلما غسلهما بيلاطس من دم المسيح، لو كان محلّه لكان قد جزم بحُكمٍ ما ـ بحكمٍ بالذنبِ أو بحكمٍ بالبراءة ـ ولكان قد دوّنه في المحضر ولو في صيغةٍ تلميحٍ مهذبٍ وجازمٍ معاً. لكان فعل هذا بعد أن يتعرّف إلى الرجل، بعد أن يتكلّم معه، لأنّ معرفة الإنسان هي أهمّ بالنسبة لروغاس من كلّ الأدلّة والبراهين بل ومن الوقائع بالذات. "الواقعيّة هي مجرّد كيس فارغ"، ولكي يستقيم الأمر لابدّ أن تضع الإنسانَ داخل الكيس، أن تضع فيه الشخصَ، الشخصيّة. فأيّ إنسان كان كريس ذاك؟ هل هو ذاكَ المحكومُ بخمسِ سنوات سجنٍ عقاباً له على محاولةِ القتل مع سابق الإصرار والتعمّد، ودون وجود أسباب وجيهة؟ ثمّ، أيّ إنسان صار هذا الرجل بعد صدور الحكم عليه، بل بعد أن قضى في السجن خمس سنوات كاملة، ثم قضى بعدها خمس سنوات أخرى حرّاً في بيت عاد ليعيش فيه وكأنّه يعيش في السجن؟ كان في وسع روغاس أن يتخيّل هذا كلّه، وأن يتخيّل فقط. أمّا النقطة الأقرب للمنطق والتي توصّل إليها من خلال تخيّلاته تلك، فكانت هذه: إنّ لدى كريس ميلاً طبيعياً يحبّب السجون إليه، لذلك فإنّه

جعل من حياته كلّها سجناً له. مهنتُه: واحدة من المهن المشجوبة التي يمكن للإنسان أن يختارها. وقد اختارها كريس عندما كان عمره ثمانية عشر عاماً فقط، عندما تخرج من الثانويّة، بل ربما قبل ذلك. اختارها بملء إرادته: لا بالوراثة ولا بالضغط. فأبوه كان محامياً وكان يريد له أن يدرس القانون. هناك أيضاً نمط حياته، عاداته، لهوه، وامرأة "باردة" إلى جانبه. لقد خلق من كلّ هذا سجناً لنفسه، وبدا أنه راضٍ عن ذلك السجن. لذلك فإن اكتشاف سجنٍ آخر وُضِع فيه ظلماً، بالقوة، بالعنف، بمكرٍ دبّره بعض الناس، حرّك في نفسه حقداً واضحاً جارفاً، بل جنوناً بارداً قاتلاً. والحقيقة هي أنّ أكبر تأكيدٍ للحرية في الحياة، هو حريّة من يبحث عن سجنٍ يسجن فيه نفسه (روغاس يناقض نفسه). كانط، مونتاني[1]، ولماذا نضحك من كريس ومن وجود اسمه إلى جانب هذه الأسماء، خاصّة وأنّ بيتهوفن في عليائه، في قصور الأرواح السامية، يقرّر أنّ عزفاً جيداً لرباعيّة دي مينوري يجب أن يصل لآذان صبايا في عمر الزهور وكأنّه هديرٌ داخل أصداف البحر أو كأنّه عزف فرقة عسكرية؟ بل إن هناك مايسميه ادغارد مورغان فورستر[2] ـ وهو مؤلّف كتاب رائع عن بيتهوفن اسمه "الينابيع المركزية": الينابيع المركزية والملكيات الميرية الحكومية (وكان روغاس يفضل القول res nullius[3]) في مجالات الميلوديا والانتصارات والفكر. بيتهوفن داخل صدفة.

---

(1) Kant, Montaigne

(2) Edward Morgan Forster كاتب وروائي انكليزي 1879ـ1970

(3) res nullius تعبير لاتيني مستمد من قوانين روما القديمة، يعني مادة لامالك لها.

معركة اوسترليتس[1] مجرّد نزهة. نقد العقل المحض[2] على البلياردو، الـEssais[3] في قوارير صيدلية. لكنّ السجن الحقيقيّ الذي يملك الآخرون مفاتيحَه، والذي يجبرنا الآخرون على دخوله، هو نفيٌ للسجن الذي من المرجح أنّ كلّ إنسان يرنو إليه، السجن الذي يحقّقه البعض عن وعي أو عن غير وعي في حياتهم الشخصية.

على أيّ حال لقد اختفى كريس. فهل اختفى، ومرّة أخرى، لأنّه كان يشعر أنّه مضطهد مظلوم، أو لأنّه كان يريد وبكلّ بساطة مواصلة عمليّات الانتقام المجنون والفرار من العقاب؟ كانت هذه هي المشكلة بالنسبة لروغاس. مشكلة ضمير، وليست مشكلة فنيّة. فإذا كان كريس قد هرب وأصبح "مطلوباً" فإنّه يكون قد أثبت من الناحية الفنيّة التهمة الموجّهة إليه (لأنّ الفرار يعني من الناحية الرسميّة إقراراً بالذنب، رغم أنّ لروغاس رأياً مخالفاً لهذا الرأي). بهذا تجد المشكلة التحقيقيّة حلاً لها: لأنّه لابدّ أن يُلقى القبض على كريس غداً أو بعد سنة أو أنّه لابدّ أن يُقتل ("قُتل خلال تبادل النار مع الشرطة")، أو أنّه سيواصل الهرب والفرار ليغيب كليةً بعد حين من الزمن: عندها، حتى إذا حذا هذا الحذو مئات الأشخاص وذهبوا كلّهم يمارسون رياضة تقتيل القضاة، فإنّ كلّ القضاة الساقطين قتلى سيُعْتَبَرون ضحايا له، لكريس، تماماً كما تسيل (أو كانت تسيل) الأنهار كلها نحو البحر.

---

(1) معركة اوسترليتس في تشيكيا اليوم، كانت من أكبر انتصارات نابوليون بونابرت، هزم فيها جيوش الروس والنمسا.

(2) من مؤلفات كانط.

(3) كتاب "المحاولة" من مؤلفات ميشيل دي مونتاني نشر عام 1580.

تكلّم روغاس من هاتف مركز الشرطة مع النائب العام في آلغو، وطلب منه إصدار تصريح بتفتيش بيت كريس خلال الليل وفي غياب صاحب البيت. وبما أنّ النائب العام لم يكن على علم بمجرى التحقيق فقد أراد أن يعرف القصة كلها. لكنّه اكتفى بعدها بما سمعه من روغاس عن نوع الحكم الذي كان كريس قد أدين به ـ محاولة قتل ـ فتقلّص فضولُ النائبِ ليصبح مجرّدَ "إنّه صاحب سوابق إذاً"، ثمّ وعد بإعطاء التصريح. استفسر روغاس بعد ذلك عن مكان نادي كاركو للثقافة العامّة، ثمّ عرف موقعه. وكان على يقين تامّ بأنّ واحداً من أقدم أصدقاء كريس وأقربهم إليه موجود هناك. ذهب إلى المكان بينما كان يواسي قلقَه واستياءَه بتأمّلِ أبواب وشرفات وباحات الشوارع الضيّقة في ذلك الحيّ القديم. كان النادي يقع في ساحة صغيرة جميلة مثلّثة الشكل، ولم يكن يتسنّى للداخل إليه أن يفهم نوع العلاقة التي يمكن أن تربط هذا النادي بالثقافة، خاصّة وأنّه سمّي على اسم كاركو، وهو الجنرال الذي أحرق المكتبة الملكيّة. كان في النادي طاولتا بلياردو وأربع موائد لعب وطاولة عليها مجلّة صيد وجريدة وكراسي كثيرة وقنصليّتان عليهما مرآتان تعكسان فيما بينهما صورَ لاعبي البلياردو والورق التعساء المستغرقين في اللعب. وكان لا يكسر ذلك الصمت إلا ارتطام الكرات الأصمّ وهي تقع في ثقب طاولة البلياردو. وهكذا فإنّ دخول روغاس شتّت لبرهة من الزمان ولبرهة واحدة فقط انتباه اللاعبين. عندما ألقى روغاس التحيّة لم يجبه أحد، لذلك فقد سأل ـ الدكتور ماكسيا؟ـ فأجاب أحد اللاعبين دون أن يرفع بصره عن الورق ـ أنا هو، ماذا تريد؟ ـ أريد أن أكلّمك ـ قال روغاس. قالها خشنةً حتى لا يتوهّم الآخر

أنّ في استطاعته تأجيل الحديث إلى نهاية اللعبة. وكان لنبرة الصوت تأثيرها ـ سآتي حالاً ـ قال ماكسيا. ثم طرح أوراق اللعب برفق وأعطى محلّه لشخص آخر كان يجلس وراء كتفه ليتفرّج بانتباه على اللعب. اقترب من روغاس وقال له:

ـ تحت أمرك.

ـ أشكرك...أنا..

ـ فلنخرج رجاءً ـ قاطعه الدكتور ـ وما إن خرجا حتّى قال:

ـ إنّك المفتّش روغاس، لقد رأيت صورتك في الجريدة.

ـ نعم إنّي أنا روغاس.

ـ وأنت تحقّق حول سلسلة الجرائم التي..

ـ نعم، اعترف روغاس..

ـ لكنّني لا أرى كيف يمكن لي أن أخدمك ـ قالها بابتسامةِ مناسبات الاحتفال، لكنّ جبينه كان يتقطّب قلَقاً.

ـ العفو. عليّ أن أعتذر أولاً لأني قطعت عليك اللعبة. إنّه مجرّد تحقّقٍ بسيط، سؤال صغير يتعلّق بصديقك كريس. ولـيكن واضحاً أن لا علاقة مباشرة لكلّ هذا بالتحقيق الذي أجريه. إنّه مجرد تحقّق لإزالة بعض الظنون حول بعض الظروف المتشابهة التي تظهر عادة في التحقيق والتي لابدّ من إزالتها قبل التقدّم فيه.

ـ فهمت ـ قال ماكسيا الذي لم يفهم.

ـ أخبروني أنّك الوحيد الذي يرافقه كريس..

ـ هذا ليس صحيحاً. إنّه لا يرافقني، كما يقول هو، بل أنا الذي أجري وراءه، أنا الذي أحاول سحبه من جحره، وأحاول حمله على استعادة بعض عاداته، وإرجاعه بين الناس، لكن عبثاً. لذلك فكثيراً ما كان يخطر على بالي أن أتركه، خاصّة وأنّه يتضايق على ما يبدو من اهتمامي به.

ـ هذا مهمّ ـ قال روغاس.

ـ ماذا؟ سأل ماكسيا وقد راوده الشك.

ـ ذلك الذي تقول.

ـ العفو، لكن ما الذي تريد أن تعرفه منّي بالضبط؟

ـ لاشيء على وجه الدقّة. أريد أن تحدثني فقط عن كريس، عن شخصيّته، كيف يعيش..

ـ أفضّل أن توجّه لي أسئلة محدّدة: فإن تكلّمت على سجيّتي وبحريّة، فإنّي أخشى أن أقول أشياء قد يفهمها من لا يعرفه على غير محملها، قد أقول أشياء تسمعها منّي فتنقلب ضدّ مصلحته، قد تضرّ به..

ـ لا تخشَ هذا، فلاشيء مما ستذكره سيدخل في محضر أو في تقرير. هذا حديث خاصّ بيننا. أريد أن أكوّن فكرة عن هذا الرجل، عن هذه الشخصيّة.

ـ شخصيّة غريبة ـ قال ماكسيا.

ـ هاك سؤالاً محدداً: هل تعتقد أنّه كان بريئاً؟

ـ أريد أن أكون صريحاً: كنت أظن لمدّة من الزمن أنّه حاول بالفعل قتل زوجته، فهو رجل منطوٍ على نفسه على الدوام، صامت، صداميّ: وباستطاعتنا أن نصدّق أيّ شيء يصدر عن مثل هذا الشخص، خيراً كان أم شراً. إذ كيف يمكن لك أن تفهم ماذا يدور في رأسه وهو على مثل هذه الحال. وفجأة تُوجَه ضدّه تهمة معينة قائمة على قرائن وظنون معقولة بما فيه الكفاية من الناحية النظريّة، ثمّ تتمخّض التهمة عن إدانة، وتجد الإدانة تأكيداً لها في الاستئناف: لابدّ لأيّ كان أن يصدّق كلّ هذا، وكنت أنا بالطبع ممن صدّقوه.

ـ مذنب؟

ـ مذنب بالطبع..ثمّ حدث أنّ الزوجة سلكت سلوكاً معيّناً: كنت تراها مسرورة، سعيدة، وتحاول إخفاء سرورها، الذي كان يظهر مع هذا في كلّ حركاتها، في كلّ كلماتها...

ـ لا غير هذا؟

ـ لا غيره. ثم هاهي تختفي كما تعلم.

ـ من الجائز أنّها ماتت، أعني قتلت.

ـ لماذا؟ ومن الذي سيقتلها؟ أين؟ زوجها كان في السجن، وليس من مصلحة أحد أن ينتقم من زوجة زجّت بزوجها، ظلماً أو عدلاً، خمس سنوات في السجن.

ـ لربّما كان قد كلّف أحداً بقتلها..

ـ أستبعد هذا. فبغضّ النظر عن مقدرة كريس أو عدم مقدرته على تكليف أحد ما ليقوم بجريمة قتل، فإنّي أستبعد الأمر لسبب

بسيط وهو أن السيّدة كريس عملت قبل يوم واحد فقط من اختفائها على تحويل كلّ ما في حوزتها من ممتلكات إلى عملة نقدية.

ـ صحيح ـ أيّده روغاس ـ قل لي إذاً: هل عرف كريس وهو في السجن بأنّ زوجته قد اختفت؟

ـ أظنّ ذلك.

ـ لا تعرف؟

ـ لا، لا أعرف، فهو لم ينطق البتّة أيّة كلمة عن زوجته بعد أن خرج من السجن.

ـ ولا حتّى عن الحيلة التي راح ضحيّتها، أو حول الحكم الظالم الذي صدر بحقّه؟

ـ ولا حتّى هذا، أبداً.

ـ بماذا تتكلّمان إذاً عندما تجتمعان؟ لابدّ أنّ هناك موضوعاً تتحدّثان فيه سويّة.. موضوعاً مفضّلاً ومشتركاً يجمعكما.... كتب.. سياسة.. رياضة.. نساء.. قصص جرائم..؟

ـ لنرَ... بيد أنّك إن لم أخطئ قلت ومنذ لحظة فقط، الحكم الظالم. فهل قلتها هكذا، تصنّعاً ومجاراة لي في الحديث، أو أنّك تعتقد بالفعل أنّ كريس قد أدين ظلماً؟

ـ ليس كليّة. لنقل سبعين بالمائة.. إذاً بماذا كان يتحدث كريس وهو بصحبتك؟

ـ كان لا يتحدث عن النساء، لأنّ حديثاً عن النساء في ذاك الظرف سيشبه ذِكْرَ الحبل في بيت المشنوق، لا بل كأنّ المشنوق بالذات

هو الذي يتكلّم عن الحبل.. كما أنّ كريس لم يكن خبيراً بالأمور الرياضيّة، ولاتهمّه السياسة، ولا يقرأ الكتب إلا نادراً... لهذا فإنّي أجزم بأنّنا أمام واحدة من حالات الحياة والواقع، الأشدّ غموضا والأكثر تعقيداً، حيث الحقائق متشابهة مزدوجة الوجوه. إنّه كمن يرى الأمور من بعيد، كمن يتمتّع بمشاهدة مسرحيّة ساخرة أو مهزلة هازئة..لا بل بمشاهدة من وقع هو نفسه ضحيّة مهزلة ساخرة ليتمتّع بعدها بمشاهدة الآخرين يقعون في الفخ نفسه.

ـ ليتسلّى؟

ـ أو ربّما ليتصنّع التسلية..قضيّة ريس مثلاً: كان كثيراً ما يتابع أخبارها في ثلاث أو أربع صحف، وكثيراً ما يتكلّم عنها...

ـ آه، قضيّة ريس..

ـ أرجو ألا تفهم كلامي على غير محمله: إنّ كريس لا يناصر المتّهم، وهو ليس مقتنعاً ببراءته، كما أنّه لا يضع أيّ تسويغ للجريمة التي اتّهموه بها..

ـ وعندما قتلوا النائب فارغا؟

ـ لا شيء.

ـ لكنّكما تكلّمتما بالأمر؟

ـ نعم، لكنّه يمكن القول إنّنا تكلّمنا بهذا من الناحية الفنيّة فقط: هل ستعود القضيّة إلى نقطة الصفر عندما يغيب المدّعي العام، أم أنّ هناك ما ينصّ في القانون على استبداله؟

ـ وكان كريس يأمل بان يتمّ استبداله، كي لا تؤجّل المحاكمة إلى مرحلة أخرى.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ تخيّلت الأمر.

ـ ظهرت على وجه ماكسيا تعابير الدهشة والرفض. بل إنّه بدا كمن يتساءل فيما إذا كان قد تكلّم بأكثر ممّا ينبغي، وفيما إذا كان عليه أن يعود ليقيس كلماته، لكنّ روغاس أدرك أنّ الوقت قد حان ليغيّر مجرى الحديث. فقال بغتة: ـ إنّ كريس غير موجود.

ـ أين هو؟ غير موجود؟ في البيت؟ في البلد؟

ـ إنّه ليس في البيت ولا في البلد. لقد اختفى.

ـ ماذا يعني "اختفى"؟ وكيف لك أن تجزم بأنّه ليس في بيته؟

ـ لقد ذهبت وقرعت الباب عدّة مرات: صمت مطبق.

ـ إنّه يتصنّع الغياب. كان يفعل الشيء نفسه معي أيضاً، أحياناً. لكنّي كنت أصفح عن الأمر ولا أستاء منه. فهو لا يحبّ دائماً صحبة الناس، كما أنّه كان يكره في بعض الأحيان صحبتي أنا بالذات. لقد قرأت مرّة مذكّرات رسّام من مدينة فلورنسة عاش في القرن السادس عشر: كانت كلماته باهتة مقرفة، إنّها وثيقة ناطقة عن مرض العصاب. لقد ذكّرتني شخصيّة كريس بالذات بشخصيّة ذاك الرسام: كان ذاك الرسام، مثل كريس، يسمع قرع أصدقائه على بابه فلا يجيب ليوهمهم بأنّه خارج البيت، ثم يذهب ليكتب في مذكراته: "لقد قرع فلان الباب ثم قرعه فلان الآخر ولا أعرف ماذا يريدون مني"، ثم إنّه كان يفكّر بالأمر يومين أو أكثر..

ـ إنّه بونتورمو[1] ـ قال روغاس.

---

(1) Jacopo Carucci معروف بلقب Pontormo (1494ـ1557) رسام إيطالي.

ـ نعم إنّه بونتورمو، كيف عرفت؟

ـ تخيّلت الأمر، قالها بتهكّم هذه المرة.

ـ بونتورمو.. كرّرها ماكسيا مضطرباً ـ ثم فكّر، وقال ـ أمّا أنا، فعندما كان يتركني كريس أمام الباب، وأنا واثق أنّه يقف خلفه، ولا يريد أن يفتح لي، فإنّي كنت أخفّف غضبي بالتفكير ببونتورمو، لقد تركني كريس واقفاً حيث أنا واقف، ليذوب في التفكير خلال يومين كاملين وهو يضرب أخماساً بأسداس ويخمّن ما عساني أريد منه، هذا مع أنّه على يقين تام بأنّي لا أريد منه شيئاً، ثم إنّه يندم بعد هذا لأنه أساء معاملتي.

ـ تدلّ مذكرات بونتورمو على أنّ الرسام كان مريضاً بالوهم، ما رأيك؟

ـ صحيح.

ـ هل يمكننا إذاً أن نقول الشيء نفسه عن كريس؟

ـ أنا طبيب، وقد أنظر إلى الأمر بتحفّظ شديد عندما نطبّقه على كريس.

ـ صحيح. غير أنّ كريس، يا عزيزي الدكتور، قد غادر بيته بالفعل. أخبرني هل أنت واثق من أنّه كان داخل بيته كلّ مرة كنت تبقى أنت فيها وراء الباب؟

ـ كيف لي أن أكون متأكّداً؟ ليس لديّ أيّ برهان، ولا يمكنني أن أكون واثقاً كلّ مرة، بل لابدّ أنّه كان أحياناً خارج البيت بالفعل.

ـ لكنّك كنت تشكّ دائماً بأنّه كان موجوداً.

ـ في المرّات الأولى: لا. بعدها استفسرت من الجيران وعرفت أنّ أحداً منهم لم يره يغادر البيت. لذلك فقد كوّنت تلك الفكرة عنه، وهي تلائم حسب معرفتي هذا الصنف من الناس.

ـ وهل صادف خلال الفترة الأخيرة أنّك بقيت ولمرّات كثيرة أمام الباب المغلق.

ـ لا أذكر، ربّما حدث الأمر مرّات عديدة..بلى..لكنّني لا أذكر إذا كان قد حدث بوتيرة العام الماضي نفسها، أو بوتيرة أعوام ثلاثة مضت.

ـ أريد أن أخبرك وبصراحة كاملة أنّنا نبحث عن كريس لنستجوبه حول مجزرة القضاة هذه. لقد راقبناه خلال الأيام الماضية، ويرى المخبر أنّه كان موجوداً في البيت حتّى مساء البارحة. أمّا الآن فقد تكوّن لدي شعور محدّد بأنّه غير موجود، بأنه تمكّن من الفرار رغم الرقابة. لهذا فقد طلبت إذناً من النائب العام باقتحام البيت هذه الليلة لتفتيشه، هذا إن لم نجده في البيت، كما أظنّ أنا، أو إذا تصنّع غيابه عن البيت، كما تظنّ أنت. وبالمناسبة، فإني آمل أن ترافقنا، وهذا في مصلحتك بما أنّك صديق لكريس.

ـ سأذهب. لكنّي أودّ أن نذهب قبل ذلك، أن نذهب الآن سوية، ولنجرّب، فعساهُ يفتح الباب.

ـ حسناً. قال روغاس.

لم يكن كريس موجوداً. ولاحظ روغاس نظافةً وترتيباً يسودان هذا البيت الكبير، وهذا أمر غير معهود بالنسبة لرجل يعيش وحيداً. كان هناك أيضاً جوّ غريب يخيّم على البيت، جوّ يشبه جوّ

السجون أو الأديرة. لكنّ أغرب ما لاحظه روغاس كان صورة السيّدة كريس (نظرات معسولة، وشفتان منشقّتان كأنما تنطقان بكلمات الغرام) وهي تطلّ من خلال إطار فضّيّ موضوع تجاه السرير الزوجي الذي واصل كريس استخدامه والنوم عليه، ذلك كما تدلّ تلك الزجاجة، وكأس الصودا وحبوب السعال والنعلان، وصحن السجائر والجزء الثالث والأخير من طبعة شعبية لكتاب "الإخوة كرامازوف"، كانت كلها مرتّبة بنظام تام على منضدة صغيرة موضوعة إلى جانب السرير.

كانت توجد تحت الكتاب قطعة كرتون يضعونها عادة في علب السجائر الفخمة لتستعمل كمذكرة: وفكّر روغاس أنّ كريس كان يضعها عند الصفحة التي وصل إليها في قراءته للكتاب. وبما أنّها لم تكن موجودة داخل الكتاب، فقد ظنّ روغاس أنّ كريس قد أنهى قراءة الكتاب. "هيّا، هيّا، كفانا أحاديث ولنذهب إلى غداء الجنازة، لا تقلقوا إذا أكلنا المقليّات، إنّها عادة قديمة، ولابد أنّها عادة جيدة". ربّما أنهى قراءة الكتاب بانتظار ساعة الفرار، ذلك بعد أن رتّب الأمور كلها والأشياء كلها وحضّرها استعداداً لمداهمة الشرطة لبيته خلال غيابه عنه. إنّه رجل دقيق، منظّم: وهو لم يترك أثراً قد يفيد في تكوين بعض المعلومات عنه أو في إدانته، فلا صورة ولا حساب فندق أو بطاقة قطار أو أيّ إيصال آخر. لقد تقلّصت شخصيّة هذا الرجل ومُسِخت في بضعة أشياء وضعت إلى جانب السرير: الصودا، حبوب السعال، "آل كارامازوف"..الصودا والحبوب التي قاربت مدّتها على الانتهاء، لهذا فقد تركها: وبالإمكان الاستخلاص بأنّه كان يستعملها باستمرار، خاصّة أنّه

كان يأكل وجبات معقّدة (فهناك في المطبخ مواد نادرة وتوابل حارّة لاسعة). أمّا "آل كارامازوف" فمغزاه واضح بما أن الكتّاب الروس، بمن فيهم غوركي، كانوا يتصدّرون مكتبته القزمة.

أمّا إطارات الصور التي كانت كلّها فارغة، فقد أعطت ماكسيا انطباعاً بأنّ كريس قد شعر على حين غرّة بشيء من تأنيب الضمير. ذلك أنّ ماكسيا تذكّر واحدةً من تلك الصور المختفية: كان كريس يقف فيها منتصباً على قدميه، مائلاً بعض الشيء نحو أمّه الجالسة، وكانت السيّدة العجوز تحمل في يدها مروحة مفتوحة، وكان اهتمامها واضحاً بأن تلتقط العدسة تلك الحركة التي تنمّ عن غنجٍ لازَمَها حتى ذلك العمر المتأخر. لماذا أخفى كريس تلك الصورة؟ لأنّه لا يريد على ما يبدو أن تقع صورته في يد الشرطة: وما يؤكّد هذا الرأي أنّ صور أمّه وأبيه وزوجته وكثيرين آخرين من أقرباء وأصدقاء بقيت كلّها في علبة كبيرة للصور، ولم يكن في هذه العلبة أيّة صورة له، ولا حتّى صورته وهو صغير يرتدي ملابس حفل قربانه الأول. هنا بدأ إخلاص ماكسيا لصديقه يتناقص، بل إنّه تضايق عندما شعر أنّه هدر هذه الليلة عبثاً. أمّا روغاس فقد شعر أنّ اختفاء الصور يشكل مشكلة داخل المشكلة. فلقد أخفى كريس تلك الصور إمّا لأنّه انقاد إلى مشاعر التحسّب الأعمى التي يمليها مرض العصاب والتي تمنعه من ترك صورٍ قد يراها من لا يعتبرهم أصدقاء (ذلك أنّ مرض العصاب يُخضع حتى الناس المثقّفين نوعاً ما، لظنونٍ وتحسّبات عمياء لها جذور قديمة بائسة)، وإمّا لأنّه يريد الحيلولة دون استخدام الشرطة لتلك الصور وتوزيعها في أنحاء البلاد ونشرها في الصحف خلال عمليّة البحث عنه. غير أنّه لن

يقيّض لهذه الفرضية أن تطول: لأنّه من السهل على روغاس أن يحصل خلال ساعات قليلة على ما يحتاجه من صور لبدء حملة البحث عن كريس، فالصور موجودة حتماً في مكاتب جوازات السفر وأرشيف السجن الذي استضاف كريس. هذا إن لم نذكر أرشيف كثير من الصحف ووكالات الأنباء المصوّرة، ولابدّ أنّ فيها صوراً متبقية من زمن محاكمته الأولى. هذا إن لم...وهنا لمعت في ذهن روغاس ذكريات عن الفوضى والإهمال التي تعمّ مواقعَ فيها أشياءٌ لابدّ من حفظها وحراستها. وتذكّر روغاس كيف أنّه من السهل على المرء أن يختلس من أيّ أرشيف تاريخيّ فرماناً لكارلوس السادس، أو مذكّرات الجنرال كاركو، بل وأن يأخذ من أرشيف القضاء بالذات مصنّف أيّ دعوى يريد. وهنا أحسّ روغاس إحساساً واضحاً محدّداً بأنّه لن يجد صورة لكريس في أيّ مكان كان.

وفي الواقع فإنّه لم يجد منها شيئاً. وما كان بوسعه أن يستفيد من صورتين قديمتين نشرتهما قبل سنوات إحدى الصحف: خاصّة وأنّ إحداهما أبرزت المفتّش كونتريرا بينما أبرزت الثانية محامي الدفاع، أمّا كريس فقد ظهر فيهما كأنّه شبح وراء زجاج شفيف. لم يبق إذاً إلا اللجوء إلى رسّام الشرطة، خاصّة وأنّ هذا تمكّن مرّةً من رسم صورة للصٍّ استوحاها من خلال الأوصاف التي قدّمها المسروقُ، فساعد الشرطة بهذا على اعتقال ذلك اللصّ. عمل هذا الرسّام تحت إشراف الدكتور ماكسيا ليومين متتابعين حتّى تمكّن من رسم صورة لكريس تعمّمها الشرطة. وكان ماكسيا ينصح الرسامَ بإجراء التعديل تلو التعديل. لكنّه ما إن اكتمل الرسم حتّى تبيّن أنّ الصورة ستثير إن نُشرت حملة اتّهامات ضدّ واحد من كبار نجوم

السينما اللامعين. وهكذا فقد استعاضوا عن نشر الصورة بتعميم أوصافِ رجلٍ طوله متر وخمسة وسبعون سنتمترا، نحيل القامة، أسمر البشرة، كامل الأسنان، أنفه صقريّ نوعاً ما، يفضّل الملابس الرماديّة، ويملك كثيراً من المال. ولابدّ أنّ النعت الأخير سيساعد كريس على النجاة من كلّ المكاره: هذا إذا اقتصر في حلّه وترحاله على ارتياد أماكن الدرجة الأولى التي لا تدسّ الشرطة فيها الأنف إلا بعناءٍ وحياء.

بمختصر الكلام: أصبح كريس الآن رجلاً خفيّاً.

كوّن روغاس في نفسه فرضيّات محدّدة حول كيفية تدبير كريس لوثائق شخصيّة مزيّفة جديدة: فالرجل كان قد اجتمع في السجن مع واحد من أحذق المزوّرين في البلاد: كان هذا المزوّر يتمتّع بشخصية جادّة، وكان دقيقاً في عمله، شريفاً مع زبائنه. كما أنّ زملاء كريس في السجن اعترفوا بأنّ هذا المزوّر كان قريباً جداً من كريس خلال سنوات السجن. وبما أنّ هذا أصبح حراً طليقاً، فإنّ روغاس ذهب ليزوره في بيته. لكنّ الرجل قال إنّه كان يكتفي بلعب الشطرنج مع كريس عندما كانا في السجن. وكانا يتبادلان الحديث حول بعض الكتب. ثمّ أضاف قائلاً إنّه مازال يحتفظ بذكرى طيّبة عن كريس، الذي لم يره البتّة بعد خروجهما من السجن، لا بل إنّه بادر ليستفسر عن أخباره. هل هو في صحّة جيدة؟ هل أعادوا النظر في قضيّته؟ هل يمكن للمفتّش عندما يراه أن يبلّغه تحيّاته؟ بالطبع، لم يكن روغاس يتوقّع موقفاً مختلفاً عن هذا الموقف.

عند هذا الحدّ وصل تحقيق كريس إلى توجهٍ معقول بما فيه الكفاية: لابدّ الآن من العثور على كريس. وأوّل ما يجب القيام به

هو التفتيش في سجلات فنادق المدن التي جرت فيها الجرائم وخلال الأيام التي جرت فيها تلك الجرائم. ولابدّ من التنبّه والتدقيق في الأسماء التي يتواجد أصحابها في أكثر من مدينة خلال تلك الأيام. فلابد أن يبرز بين تلك الأسماء اسم يستعمله كريس في وثائقه المزيّفة. لم يكن روغاس يأمل بالطبع أن يصل بعد هذا العمل إلى نتيجة إيجابية، لكنّه إجراءٌ لابدّ من اتّخاذه: خاصّة وأنّ أكثر حالات الإجرام التي حقّق فيها علّمتهُ أنّ أشدّ الخطط إحكاماً وأكثرها اعتناءً بالتفاصيل ودقائق الأمور تتكشّفَ فجأةً عن أشدّ الأخطاء تفاهةً وعن أكثر الهفوات بساطةً، فتنكشف الخطةُ برمّتها وتوقِع بصاحبها.

لكنّه ما إن عاد المفتّش إلى العاصمة وبدأ يستعدّ لكتابة تقرير عن أعماله، حتى سقط المفتّش بيرو في العاصمة بالذات. وقد شاهد بعض الشهود الحادث هذه المرة، كانوا حارساً ليلياً وموسماً ورجلاً كان واقفاً على شرفة بيته هرباً من الحرّ الشديد في الداخل. لم يشاهد أيّ من الثلاثة الحادث كما وقع، لكنّهم رأوا بعد سماع الطلقة شخصين يفرّان من مكان الجريمة. ودلّت سرعة جريهما وخفّة حركاتهما على أنّهما في مقتبل العمر. كما دلّ شعر رأسيهما وطريقة تسريحه (بما أنّهما تعثّرا فتوقّفا للحظة تحت مصباح في الشارع) على أنّهما من صنف معيّن ومن اتّجاه معروف. "كانوا يترعرعون على سجيتهم، يطلقون الشوارب واللحى ويسدلون الشعور طويلةً مسترسلة...يتباهون بزينتهم، أكمامهم تضيق على معاصمهم، يرتدون أنواعاً مختلفة من الملابس والأحذية.." (قصّة سريّة ـ بروكيبو دي شيزاريا[1]).

---

(1) Procopio di Cesarea مؤرخ بيزنطيني 500ـ565

أدخل الخبرُ السرورَ في سائر البلاد، أو كاد. كما أنّه رفع معنويّات من في البرلمان والحكومة والصحف والاكليروس، بل والآباء والمعلّمين والطبقة العاملة والحزب الثوري الاجتماعي الذي يمثلها. ولم تبق صحيفة لم توفّر على الشرطة سخريتها المبرقعة أو هزأها الفاضح. وكان السؤال الذي طرحه الصحافيّون والمعلّقون، والحكومة والمعارضة، والذي أعادوا طرحه تحت أشكال مختلفة: كيف يمكن للشرطة في بلد يضطرب بجماعات من الشبيبة التي تدعو إلى العنف بل وتجعل منه وسيلة لها وغاية، كيف يمكن لها أن تلتفت إلى فرضيّةِ مجرمٍ منعزلٍ يعمل بمفرده، فرضيةِ مجرمٍ مجنونٍ يريدُ الانتقام؟

طرح هذا السؤال نفسه كلّ من رئيس الشرطة ووزير الأمن القومي. ووقع سؤالُهما على رأس روغاس وقعَ الصخر. عبثاً حاول المفتّش روغاس أن يفسّر أنّ ما وقع لا يغير صلاحيّة الفرضية المعتمَدة حتى ذلك الحين، وأنّه لابدّ من النظر إلى شهادة أولئك المواطنين الصالحين الثلاثة ضمن نطاق ما شاهدوه بالفعل: فهم لم يشاهدوا إلا شابّين يفرّان من مكان الجريمة. لكنّ الرئيس استاء، ثم إنّه أمر روغاس بأن ينزع من رأسه صورة كريس الهارب، والذي لم يهرب إلا لأنّهم راقبوه افتراءً وشدّدوا الخناق عليه ظلماً. كريس، ذلك المسكين...! وأمره بأن يعمل مع زميله المتَدب من قبل القسم السياسي، هذا إذا أراد أن يكفّر عن أخطائه التي ارتكبها، وعمّا أثارته أخطاؤه من أقوالٍ نالت من هيبةِ هيئة الشرطة.

لكنّ كريس لم يغرب عن بال روغاس. فبفضلِ حارسٍ ليلي ومومسٍ وسيدٍ كان يعاني من شدّة الحر، لابدّ أنّ كريس ينعم الآن

بالحريّة وبالحصانة التامة، وهذا سيسهّل عليه تنفيذ خططه. ومع أنّ الاهتمام المهني قد تناقص عند روغاس، فانّ عناده واهتمامه الإنسانيّ لم يتناقصا البتة. لابدّ له أن يلتقي بكريس ذات مرّة أو في مرّة أخرى، وهو لن يعتقله على الأرجح، غير أنّه سينجح وسيراه، وسينجح. على أنّه الآن موجود تحت إمرة زميله مندوب القسم السياسي: إنّه عقاب، وإنّها إهانة مهنيّة.

بدت مكاتب القسم السياسي وكأنّها فرع جديد لمكتبة من مكاتب الرهبان البندكتيّين[1]: فهناك وراء كلّ طاولة موظّف مستغرق في قراءة كتاب أو نشرة أو مجلّة. وفسّر له الأمر زميله رئيس القسم قائلاً: نقوم الآن بقراءة ما نشرته كلّ الجماعات خلال الأشهر الستّة الأخيرة، ونوجّه انتباهنا على وجه الخصوص إلى العبارات التي تهاجم إدارة القضاء في البلاد. وقد وجدنا حتّى الآن مقطعين أو ثلاثة مقاطع عنيفة أكثر من غيرها، لكنّ اهتمامنا توجّه نحو هذه المجلّة بالذات. قالها وهو يتناول مجلّة سميكة الحجم، ثمّ فتحها وعرض على روغاس صفحةً خُطِّطَ على هامشها بالأحمر وسُطِّرَ تحت كلماتها بالأزرق. ـ اقرأ، إنّها كلمات تستعمل خصّيصاً لإشعال النار في العقول الضعيفة، ولِنَقْلِ عدوى الهذيان إلى كلّ من يفتقد موازين العدل حين يحكم على الأمور والأشياء.

---

(1) تضم طائفة البندكتيين مجموعة من الفرق والأديرة المستقلة التي تطبق تعاليم القدّيس بينيديتّو، الذي أسسها حوالي عام 529. وقد عممت هذه التعاليم عام 817 على الأديرة الفرنسية ـ الألمانية كلها. كما جمع البابا ليون الثالث عشر هذه الفرق كلها تحت إدارة كهنوتية موحدة في روما. ومن أهم شعارات هذه الطائفة "صلّي واعمل".

قرأها روغاس دون أدنى اهتمام، وكان يفكّر بالميزان العادل الذي يزن به الأمورَ كلٌ من زميله وكريس. ـ بالفعل ـ قال وهو يعيد المجلة ـ حقّاً إنّها مقالة عنيفة: يجب تجريم من كتبها بتهمة التحريض ضدّ السلطة، بل وبتهمة التحريض على الجريمة أيضاً. ـ "هذا ما فعلناه أيّها الزميل العزيز، هذا ما فعلناه". قالها وهو يؤكّد على لفظة الزميل، وكأنّه يريد التلميح إلى أنّهما ليسا زملاء من الناحية العمليّة. ـ "المشكلة هي أن نعرف الآن مَن كتب المقالة. بوسعنا طبعاً توجيه التهمة إلى مدير المجلة، بما أنّ المقالة صدرت دون توقيع. لكن هل هو الذي كتبها، أم ليس هو الذي كتبها؟ لأنّه..اسمعني جيداً..لقد كونت فكرة بأنّ الضربة..أي عمليات اغتيال القضاة هذه... إنما هي من فعل الجماعة التي تُصدر هذه المجلة. هل تعرف لماذا كوّنتُ هذه الفكرة؟ ذلك أنّنا بدأنا نراقب الجماعة فوجدنا أنّها تظهر نفسها بمظهر جماعة قد انحلّت، ولم يبق من أعضائها إلا ما يقارب العشرة، بينما اختفى البقيّة، دون أن نتمكّن من العثور على واحد منهم".

ـ ألا تعتقد أنّ فصل الصيف وموسم الاصطياف هو الذي شتّت الجماعة؟ قالها روغاس وقد لاحظ أنّ تعبير الجماعة قد انتقل من مقالات السيد آرون إلى مكاتب الشرطة، لهذا فقد لفظها وكأنّه يضعها بين هلالين. ـ يمكن أنّهم ذهبوا إلى شاطئ البحر، إلى الجبل، أو أنّهم سافروا في رحلات إلى الخارج...

ـ أخذنا هذه الفكرة بعين الاعتبار، ورأينا أنّهم إن كانوا في مصايف البحر أو الجبل فإنّهم ذهبوا إلى هناك ليختبئوا...

ـ لا..لا.. بل إنّهم ذهبوا إلى فيلات آبائهم، أو على ظهور اليخوت: وأراهن أنّ من بقي منهم هنا ليس إلا من فقرائهم..

ـ جائز. ـ ثم قال بلهجة من يريد نفي هذه الملاحظة: لكنّ مدير المجلة اختفى أيضا: مع أنّنا، ليكن هذا واضحاً، لا نريد اعتقاله ولا إيقافه، ...

ـ لن يكون أمراً سهلاً.

ـ هو أسهل عليك منّا. فأنت أديب أو تكاد. ـ قالها بلهجة تتضح فيها نيّة الإساءة، رغم ما في ظاهرها من مزاح مزدرٍ: يسوّغ تلك اللهجة ذلك الصيت الذي كان لروغاس بين رؤسائه وزملائه، صيت الأديب الذي شاع عنه لكثرة الكتب المتراكمة على طاولته في الدائرة وبسب انتظام وتركيز تقاريره التحريرية. فتقاريره كانت تختلف كلّ الاختلاف عن التقارير التي كانت تتداولها منذ قرن من الزمان كلّ مكاتب الشرطة. لهذا كان البعض يهتفون قائلين ـ ما أروع كتابته وأسلوبه ـ أو ـ وماذا يعني هذا؟ ـ ثم إنّ روغاس كان معروفاً بتردّده على بعض الصحافيّين والأدباء، كما أنّه كان يزور المعارض الفنية ويرتاد المسارح.

ـ إنّي لست أديباً، ولا أكاد ـ قال بحدّة.

ـ سامحني: أعني أنّك تجيد معاملة أولئك الناس.

ـ ولا هذه. الحقيقة أنّني أعرف اثنين أو ثلاثة من الصحافيّين، والقليل القليل من الأدباء. كما أنّني صديق للكاتب كوزان منذ أيام الثانويّة العامّة.

ـ على أيّ حال فأنت في وضع أفضل من وضعنا...عليك إذاً: أولاً أن تكتشف مخبأ مدير المجلة وتعلمني حالاً بمكان وجوده لأنظّم بدوري رقابة مشدّدة عليه. ثانياً: يجب عليك عندما نُحكم رقابتنا عليه أن تزوره وأن تتبادل معه الحديث، أن تختلس منه

المعلومات الممكنة عن المجلة وعن الجماعة، وأن تجعله يحترس فيحمل كلّ أصدقائه على الاحتراس والحذر، ولا حاجة للقول بأنّنا سنراقب هاتف البيت الذي يختبئ فيه..اتّفقنا..

ـ اتّفقنا ـ أجاب روغاس بلهجة منهكة.

عرف روغاس في الحال أنّ مدير مجلة "الثورة المتواصلة" يحلّ ضيفاً على الكاتب نوتشو في بيته. أخبر روغاس زميله السياسيّ بالأمر، فأمر هذا بدوره بإحكام المراقبة على الهاتف. بعد ساعتين كان يطرق باب الفيلا الكائنة في الضاحية والتي كان نوتشو يعتكف فيها خلال الصيف، فيكتب كتاباً في كلّ موسم صيف. فتحت له الباب خادمة ترتدي مئزر الخدم وتضع على رأسها شريطة أنيقة، فنظرت إليه نظرة حذر، ثمّ قالت له قبل أن ينبس ببنت شفة:

ـ السيد نوتشو غير موجود.

ـ أنا مفتّش شرطة.

ـ سأذهب لأتأكّد إن كان موجوداً ـ قالت الخادمة وقد احمرّت وجنتاها خجلاً من كذبتها، أو لربّما بسبب انفعالها لأنّه لم يسبق لها في هذا البيت أن وجدت مفتّش شرطة أمامها.

كان نوتشو موجوداً. أدخلت الخادمة روغاس إلى غرفة مكتب كبيرة ومظلمة كان نوتشو يقبع في صدرها وراء طاولة يضيئها مصباح معلّق رغم أنّ الوقت كان نهاراً. عندما أصبح روغاس على مقربة ثلاث خطوات منه رفع هذا بصره عن المخطوطة التي بدا أنّه كان ينقّحها، ثمّ نهض متّكئاً على ذراعي الكرسي وكأنّه يبذل جهداً في النهوض، ثمّ دار حول الطاولة ومدّ يده إليه مصافحاً.

ـ أنا المفتّش روغاس.

ـ سعيد جداً. إنّي تحت تصرفّك ـ. ثم فتح ذراعيه وكأنّما ليقول إنّه لا يستطيع أن يفيده أو أن يفيد الشرطة، فهذه لا تتردّد إلا على المذنبين، وهو بريء منذ قديم الزمان.

ـ ما كنت لأزعجك ـ قال روغاس ـ لولا ما عرفناه عن وجود ضيف عندك هو الدكتور غالانو، مدير مجلة "الثورة المتواصلة".

ـ إنّه ليس ضيفي، بل ضيف زوجتي.

ـ آه ـ قال روغاس.

ـ لا تفكّر بما ظننتَ ـ قال نوتشو ضاحكاً ـ فلقد أصبحت زوجتي في العمر الذي تُقبَل به النساء خادمات للرهبان والكهنة. بل يصحّ القول إنّها تقوم الآن بدور خادمة الكاهن، كاهنٍ من كهنة الثورة. ثمّ لا تنسَ، والكلام بيننا، أنّ غالانو....

ـ معروف ـ قال روغاس.

ـ طبعاً، أنتم تعرفون كلّ شيء..وقد عرفتم ـ بسخرية ـ أنّ غالانو حلّ ضيفاً عليّ: رغم أنّ هذه ليست معلومات صحيحة كلّ الصحة. بل إنّي أسرّ لك بأنّي لا أطيقه: فهو ليس إلا مثقّفاً صغيراً وهستيرياً من مثقّفي الضواحي. هل قلتُ إنّه مثقّف؟ لقد أخطأت، فهو من أولئك المجاذيب الذين يوهمون الناس بأحاديثهم الذكية. ولا يحتاج المرء في هذه الأيّام إلى باعٍ طويل ليكتسب هذه المقدرة على الإيهام، "كلام، كلام، كلام.." إنّك تقرأ مجلّته؟

ـ بعض المقالات.. واجب مهنيّ...

ـ وهنا سقط نوتشو على مقعده وهو يطلق ضحكة عميقة مسترسلة مع أنّها شبه مكتومة.

ـ واجب مهنيّ؟ هل تعلم أنّك قلت نكتة من أجمل النكات التي سمعتها خلال السنوات الأخيرة؟ واجب مهنيّ..جميلة جداً..لكن تفضّل، أرجوك. ـ وأشار إليه بمقعد تجاهه. ـ هل رأيت ـ واصل نوتشو حديثه وهو ينفض عنه المرح المباغت ـ ذلك القسم من المجلة المتعلّق بالكتب؟ لقد سمّوها زاوية "القائمة السوداء".. هذا المجنون، غالانو طبعاً، لقد اكتشف القائمة السوداء التي صنّفت فيها الكنيسة الكتب التي كانت تعتبرها محرّمة: اكتشفها بعد أربعة قرون وبعد أن لعقت الكنيسة بالذات كلّ آثارها... هاك كلّ كتبي، كلّها دون استثناء، موضوعة في تلك القائمة. فكّر: كلّ كتبي..الكتب الأشدّ ثورية بين كلّ ما كُتب منذ ثلاثين عاماً وحتّى يومنا هذا...

إنّه ساذج ـ فكّر روغاس ـ لقد وصل في الحال إلى موضع الجرح. ـ طبعاً ـ أجابه مؤيداً رأيه. ولم يفعل ذلك إلا ليواسيه.

ـ القضيّة ـ تابع نوتشو حديثه ـ أنّهم كاثوليك، من الكاثوليك القدامى، متطرّفون، جنائزيون: ولايدركون أنّهم كذلك. المؤسف أنّ الكنيسة الكاثوليكية تحثّ اليوم خطاها لتتوافق مع روح العصر: ويا ليتها تنغلق على نفسها، يا ليتها تعود لقسوتها التي كانت عليها أيّام فيليب الثاني، أيام التفتيش وحروب الإصلاح، إذاً لرأيت هؤلاء كلّهم يركضون أسراباً أسراباً ليعودوا إلى كنف الكنيسة. التحريم، التفتيش، العقاب: هذا هو ما يريدونه.

ـ إذا حدث ما تقول فستعود الكنيسة لتثقل اليوم كاهلنا، كما كانت تفعل أيّام محاربتها لحركة الإصلاح. ولا أعتقد أنّ هذا ما تريده ـ علّق روغاس.

ـ لا، لا أريد هذا. ولا يمكن لهذا أن يحدث على أيّ حال. لكنّي أرغب رغبة جنونيّة في أن يحدث، فهذا ما أحلم به باستمرار. عندها ستتضّح الأمور، ستبدو شفّافة صافية: سيظهرون هم في طرف وأنا في الطرف الآخر. أمّا الآن فإنّي مضطرّ للبقاء في طرفهم، في طرف غالانو الذي يُحرِّم قراءة كتبي. الثورة، هل تفهم؟ إنّها كلمة، ليست إلا كلمة، لكنّها تُلزِمني، تبتزّني، تجعل منّي كلاًّ واحداً مع غالانو وكلّ شرذمته. ثمّ أضاف وكأنّه يصرخ ـ إنّي أبغضهم.

نهض نوتشو بعد استراحة قصيرة وذهب نحو طاولته، أخذ بعض الأوراق ثم عاد ليجلس تلقاء روغاس. هل تعلم ماذا كنت أفعل عندما دخلتَ عليّ؟ كنت أقرأ للمرة الثانية وأنقّح أبيات شعر ارتجلتها مساء الأمس خلال فورة غضب. أبيات شعر..مع أنّي لم أقرض الشعر منذ أيّام الثانوية... اقرأُها ـ وقدّم له الأوراق بحركة عصبيّة، كما لو أنّه اتّخذ قراراً خجِلَ من اتّخاذه. فقرأ روغاس:

تقرؤون بصلف وتكرّرون عن ظهر قلب

ما لا تعرفون

تبخُّون أفكاراً ـ رغوةَ أفكارٍ قديمةٍ جديدة

(قديمةٍ أكثر منها جديدة)

تلوكُها شفاهكم ثم ترغون بها

كما كنتم تفعلون بالأمس القريب عندما كنتم أطفالاً على ذراع الماما

الماما، الماما ـ

كما كنتم تفعلون بقشدة البوظة. إنها تسيل الآن

من لحاكم المتشبّهة بلحى القدّيسين الأوائل

يا للخداع المدروس

يا للنضج المُتَصنّع الذي يجعلكم

صالحين، مثل آبائكم، لجماعٍ محرم.

الماما

هنا تكمن المشكلة كلها

وأنتم تَدعون إلى ملكوتها

هناك تحت لحاكم وجوهٌ

على طراز القدّيس لويس ـ الرأسمالية الجديدة ـ الجديدة

بكلّ سوسِ وجهِه

كلّ سوس البرجوازيّة على وجوهكم

لقد نشأ هو بين الأقزام والمهرّجين

بين كلّ أحدب وعنّين

بين الذهب والأمراض الزهريّة

إنّها اللحى التي تعتّم وجوهكم

وجوه القوّادين الناعمة

وجوه الشاذّين

وجوه اللوطّيين

بينما روبسبير الذي كان أمرد

يضحك منكم ومن ثورتكم

إنّ جمجمته تضحك اليوم

ويضحك كذلك تراب جثّته

وتضحك ذكراه التي تفوق قيمتها

قيمة كلّ حياتكم

إنّها تضحك لأنّكم أحياء بينما هو ميّت

بل إنّ ماركس يضحك أيضا من فوق لحيته

يضحك بكلّ شعرة من شعر لحيته

يضحك من القواقع الفارغة التي تركها لكم

تقرقع وترنّ

يضحك من البذرة الجافة البذرة الميتة

الـتي تتفـاخرون بهـا كمـا تتفـاخر البغـال بـأجراس رقابهـا في مهرجانات الهواء الطلق خلال العيد

إنّكم تهزّون تلك الأجراس في خمولكم وسخطكم وقرفكم

(بينما مازالت بذرة ماركس حيّة في قلوب الذين يتألّمون

الذين يفكّرون

الذين لا يحملون الشعارات والأعلام)

إنّ روبسبير وماركس يضحكان

بل ربّما كانا يبكيان

على إنسان لم يعد إنسانا وهو ينمو فيكم

على فكرٍ لا يفكّر

على حبٍّ لا يحبّ

وعلى الفشل الجنسيّ والعقليّ المزمن

الذي تستعملونه لتبشّروا بملكوت الأمّهات

و that I not what I meant at all

that is not it, at all[1]

ليس هذا، ليس هذا

ونحن أيضا لم نرغب في هذا

نحن المهرّجون

أصحاب العادات السيّئة

الفاسدون

نحن الآباء

ولا حتّى نحن

---

(1) لم أكن أعني هذا على الإطلاق
لم يكن هذا على الإطلاق

مع أنّنا كنّا نتعهّر بالحياة لنعني الحب

ونتعهّر بالعقل لنعني الفكر

العقل

الجنس

الرجل والمرأة

الذكر والأنثى

الألم

الموت

قال تاليران إنّ حلاوة الحياة

لم يعرفها إلا أمثاله

ممن عاشوا قبل الثورة

لكنّه بعدكم (وليس بعد ثورتكم

التي لن تصنعوها) لن يكون

أثر لتردّدِ أيّ صدى

لحلاوة الحياة

كما لن يبقى أيّ تاريخ لكم

إلا في مكتب المخدّرات الإتّحادي.

كان للإنسان الإنسانيّ قمرُهُ

آلهة بشرية

ضوء حبٍّ هادئ

وكان لكم أنتم

حجرُ صوّانٍ رمادي ممتلئ بالجدريّ

صحراءُ تصلح لعظامكم التي لم تعد بشريّة

لوحة طبيعة صامتة تبرز قوارير البصيرة الميّتة

لكنكم لا تعرفون شيئا

عن حكاية اريوستو[1] حول اورلاندو

وعن بصيرته التي استعادها آستولفو

خلال رحلة قمريّة

ثمّ عن البصيرة المختومة ضمن قارورة

مثل بصيرتكم (لكنّ بصيرتكم

لا يمكن لأحد أن يستعيدها). قارورةُ لوحةِ الطبيعةِ الصامتة

قارورةُ تخاذُلِ الجنس

كما كان يقول ستاندال

باللغة الإيطاليّة في نصّه

ستاندال الذي لا تعرفونه

ستاندال الذي يتكلم

---

(1) Ludovico Ariosto شاعر ايطالي 1474ـــ 1533 اشتهر بملحمة "اورلاندو فوريوزو" ـ اورلاندو وآستولفو من شخصيات الكتاب

بلغة المشاعر التي متُّم عنها.

ـ قصيدة هامّة ـ قال روغاس. ـ وهل ستنشرها؟

ـ هل تمزح؟ قالها وقد انقلبت معالم وجهه فأصبحت سوقيّة مبتذلة بعد أن كانت ناعمة رغم التقطيب. إنّه تاجر، قال روغاس في نفسه، إنّه تاجرٌ سمعَ عرضاً تجارياً شمَّ فيه رائحة الخسارة. هل تمزح؟ إنّهم يتّهمونني أصلاً بأنّني رجعّي، أما إذا نشرت مثل هذه القصيدة فإنّي سأُدفن تحتها، ستكون نهايتي وشاهدةً تُنْصَبُ على قبري.

ـ لكنّك شعرت بالحاجة إلى كتابتها، بل إنّك كتبتها بالفعل.

ـ كتبتها لمجرّد التنفيس، التنفيس الآنيّ، الجنونيّ. قد تقول إنّ فيها بعض الحقائق، بعض النبوءات. لكنّ هذا كلّه يبقى أمراً بلا أيّ معنى أمام حقيقة الثورة، وهي الحقيقة الوحيدة، الحقيقة الكبيرة: إنّها ثورة قادمة ولاشكّ، ستتحقّق يقيناً مثل يقينِ عودة النهار بعد الليل... لن ينفّذها بالطبع غالانو ولا الآخرون من أمثاله، ممن يتشدّقون بها دون أن يفهموها ودون أن ينتظروها، نعم، قد يكونون في الصفّ الأوّل من صفوفها.. لكنهم سيكونون ربّما وأيضاً أولَ من تلْتهِم، على أيّ حال سيكونون هناك، سيكونون موجودين لحظة انفجارها. ـ ثم قال وهو يغيّر لهجته: ـ هل قرأت باسكال؟

ـ قرأته.

ـ هل تذكر أفكاره حول الرهان؟ إنّها تبدو أفكاراً فاضحة لأوّل وهلة.

ـ بل إنّها مرعبة.

ـ لا، أبداً... فما هو الثمن الذي سأدفعه إن أنا آمنت بالله، وبالخلود، وبخلود الروح، ولم يكن كلّ هذا موجوداً؟ لاشيء. أمّا إذا لم أؤمن بكل هذا، وكان كلّ هذا موجوداً بالفعل، فإنّ الثمنَ الذي يجب دفعُهُ هو الفناءُ الأبديُّ.. لقد انتقلتْ إمكانيةُ الرهان هذه ممّا وراء الطبيعة والميتافيزيك إلى التاريخ. فأصبح الغيب هو الثورة. وهكذا فإنّ المرء سيخسر كلّ الخسران إن هو راهن على نفيها، أمّا إذا راهن على تأكيدها فإنّه لن يخسر شيئا إذا لم تتحقّق لكنّه سيربح كلّ شيء إن هي تحقّقت...إنّ هذا ليس حكماً مرعباً كما قلت أنت آنفاً. ذلك أنّ هذه العبارة النفعيّة يجب ألا تنسينا أنّنا مازلنا في مشكلة الاختيار الحرّ، في آراء أوغسطين وباسكال، وفي مشكلة الحريّة في رأيي.. ألا تشعر أنت بهذه المشكلة؟ ألا تراهن؟ ألا تريد أن تراهن؟

ـ بل إنّي أحتقر كلّ أنواع الرهان. لا أريد أن أجازف ثم أربح، إنّي أحبّ الهزائم والمهزومين. وبإمكاني أن أخبرك أنّي بدأت أكتشف في نفسي نوعاً من الحبّ للثورة: لأنّ الثورة اليوم أصبحت مجرّد هزيمة.

ـ أعتقد أنّك تتكلّم من وجهة نظر مهنيّة، وصدّقني أنّي لا أقصد بهذا أيّة إساءة: فأنت موجود داخل مؤسسات الدولة البرجوازيّة لذلك فأنت تدافع عنها، وتظنّ أنّ هذه المؤسسات تملك عملياً إمكانيّات واسعة ولا محدودة على المقاومة. لكن ألا ترى ما الّذي يحدث في البلاد؟ هاهي المشكلات تطفو الآن على السطح، وهاهي العقد تتعثّر بين أسنان المشط.

ـ هذا إذا كان هناك مشط ـ قال روغاس بحزن.

ـ حتماً، إذا كان هناك مشط ـ قالها وهو يحملق بروغاس بانتباهٍ مشتّت. ثم أضاف مازحاً:

ـ أرجو ألا يكون الكلام عن الثورة جنحةً!

ـ أؤكّد لك من وجهة نظري المهنيّة أنّه من الأفضل إكثار الكلام عنها.

ـ يا غالانو! ـ صاح نوتشو مبتهلاً بطريقة مضحكة. لكنّه ما لبث أن تذكّر سبب وجود روغاس عنده.

ـ لقد جئت لتكلّمه... العفو، سأناديه في الحال. ـ ثم توجّه نحو طاولته وتناول جرساً فضيّاً كان عليها، وهزّ الجرس هزّات كثيرة. ما إن سمعت الخادمة قرع الجرس حتى أطلّت. ـ أخبري السيد غالانو، والسيّدة بالطبع، أنّ عندي مفتّش شرطة يريد أن يكلّمه. ـ وما إن غابت الخادمة حتّى انهال نوتشو على الأوراق التي أعطاها لروغاس ليقرأها، وسحبها منه ليضعها في درج الطاولة، ثمّ أغلق الدرج ووضع المفتاح في جيبه.

ـ هل ستتلفها؟ سأل روغاس.

ـ لماذا؟ سأل وقد بُهت غاضباً.

ـ لأنّه لا يمكن لك أن تترك أثراً لأمرٍ يجعلك تخسر الرهان، رغم أنّي أتساءل إن كان بوسعك أن تربح الرهان بمثل هذه الأوراق؟

ـ أرجوك...

ـ قالها ربما ليشير إلى الجنون العرضيّ في تلك الأبيات، أو ربّما ليرجو المفتّش ألا يتكلم بالأمر بعد الآن: لأنّ غالانو دخل الغرفة

بخفّة وكأنّه يرقص رقصة صامتة. توقّف بنظراته عند نوتشو وتصنّع الخوف والقلق والقرف ثمّ سأل:

ـ مفتّش شرطة؟ لي؟

ـ فأشار نوتشو إلى روغاس الذي كان قد نهض واقفاً.

ـ هل ستعتقلني؟ ـ سأل غالانو وهو يرمي روغاس بنظرات معسولة. والتفت بعدها نحو نوتشو ليسأله ـ هل تظنّ أنّه جاء ليعتقلني؟

ـ لا أعرف. أجابه نوتشو بخشونة.

ـ لكنّك ستفرح آنئذ ـ قال غالانو وهو يهزّ إصبعه وكأنّه باغت الآخر بالجرم المشهود، أو كأنّه يحذّره.

ـ بماذا سيفرح؟ سألت السيّدة زوجها نوتشو وهي على عتبة الغرفة. انحنى روغاس نصف انحناءة محيِّياً، وفكّر: لابد أنّ [1] Tallemant Des Reaux سيقول إنّه لا يوجد بين النساء إلا عدد قليل هنّ أقل جمالاً منها.

ـ فليعتقلوني إذا شاؤوا ـ قال غالانو.

ـ أوه ـ قالت السيدة وهي تنظر برعب وفزع إلى زوجها.

ـ لكنّ روغاس سارع قبل أن تنفجر أمامه الأحقاد العائليّة وقال: عليّ أن أخيّب أملك، إذ أنّي لم آتِ لاعتقالك.

ـ هذا ممّا يخيّب آمالي بالفعل. قال غالانو برزانة. ـ ومما يخيّب أمله أيضا، أردف وهو يشير إلى نوتشو.

---

(1) Tallemant, Sieur Des Réaux 1619ـ1692 كاتب فرنسي اشتهر بكتاب عن مجموعة من السِيَر

ـ لقد جئت ـ قال روغاس ـ لأبلغك بأنّك متّهم بالتهجّم والتحريض على أمن الدولة، هذا بصفتك مديراً لمجلة "الثورة المتواصلة" ولكونك ظنيناً بكتابة مقالة غير موقّعة تهاجم إدارة القضاء في البلاد.

ـ إنّها القصّة نفسها. قال غالانو.

ـ نعم، إنّها القصة نفسها. لكنّها تجري الآن في جوّ جديد، لابدّ أنّك تفهم ما الّذي أعنيه.

ـ لا، لا أفهم شيئاً، لا بل إنّي أرفض أن أفهم. إذا رغبوا في أن يجعلوا منّي الضحيّة وقربان الفداء في مهزلة اغتيال القضاة، فهذا يعني أنّ إدارة العدالة قد تجاوزت ما أوردناه في اتّهاماتنا: وهذا ما يشجّع على إيجاد مادّة جديدة لمقالةٍ أعنف وأقوى.

ـ إنّك أنت الذي كتب تلك المقالة.

ـ إنّي لا أنفي الأمر ولا أؤكّده. لقد وجّهتم إليّ تهمة: حسناً سنتقابل إذن في المحكمة. لكنّي أؤكد لك بأنّي لا يمكن أن أكون بين من يسعى هنا وهناك ليغتال القضاة.

ـ وأنا على اقتناع تامٍّ بما تقول.

ـ أنت أم الشرطة؟

ـ أنا شخصياً.

ـ ولماذا؟ ـ قالها بشيء من خيبة الأمل.

ـ ربّما بسبب أنانيّتي.

ـ حتماً. لقد تذكرت: كنت أنت تبحث وتستقصي في جهة أخرى، بينما كانت الشرطة تتّجه نحوي في شكوكها.

ـ لم أقل هذا. لكنّه بوسعي التصريح بأنّ الشرطة تغذّي شكوكاً حول مقالتك: أو بالأحرى حول التأثيرات التي يمكن لمقالةٍ مثل مقالتك أن تولّدها لدى قارئ ما أو لدى مجموعة قرّاء، أو لدى خليّة متطرفّة من المعجبين بك.

ـ لا، لا، لا يمكن لمقالاتي أن تفضي بكل أسف إلى مثل تلك التأثيرات. لو كان لها أن تفعل مثل ذلك لكنت وجدت هذا ـ وأشار إلى نوتشو ـ قد صعد إلى السماء في كنيسة المسيح ملكاً، وصار في عداد كبار موتى الأمّة.

وما لبثت ذقن نوتشو أن ارتجفت وكأنّها ذقن طفل في سبيله إلى البكاء. أو لربّما كان الأمر مجرّد غضب عابر. أنت كلب ـ قال له. ثمّ حاول تلطيف الشتيمة بابتسامةٍ خبيثة.

ـ ولماذا؟ هل لأنّي أؤكد أنّك لست إلا كاتباً برجوازيّاً يتحمل مسؤوليّات أكبر من مسؤوليات وزير الأمن أو رئيس المحكمة العليا أو أكثر الممولّين الأميركيّين فاشيّةً؟

ـ كاتب برجوازيّ؟ أنا؟ ـ ثم التفت نحو روغاس متسائلا:

ـ هل سمعت؟ أنا كاتب برجوازيّ؟ أخبره إن كانت الشرطة تعتبرني كاتباً برجوازيّاً!

ـ فيلفريدو ـ لا تكن مضحكاً ـ تدخّلت السيدة ـ لا ينقصك الآن إلا شهادة من الشرطة كتب فيها "فيلفريدو نوتشو ليس كاتباً برجوازيّاً"، ثمّ يوقعها تامبورا. ـ وكان تامبورا هذا رئيس شرطة اشتهر بعدائه للمثقّفين.

ـ أغلقي منقارك ـ قال نوتشو لزوجته.

ـ هاك شهادة على رجعيتك: "أغلقي منقارك"، هذا لأنّي امرأة، لأنّي زوجتك...

ـ لا، بل لأنّه ليس لك فم بل منقار ببّغاء، منقار حدأةٍ لِصّة ـ قال نوتشو بحدّة وقسوة.

ـ ايه، لا، وألف لا، لا مفرّ: لست إلا كاتباً برجوازيّاً، إنّك كاتب برجوازيّ وتعيش حياة برجوازيّة، تأكل وتنام وتتسلّى بطريقة البرجوازيّين. قال له غالانو.

ـ إنّي لست برجوازيّاً ـ صاح نوتشو، وقد شارف على الوقوع في أزمة عصبيّة.

ـ العفو ـ قال روغاس لغالانو محاولاً تخفيف مأساته بعد أن أشفق عليه ـ لقد قلت: "تأكل وتنام وتتسلى بطريقة البرجوازيّين"، فماذا كنت تعني بهذا القول؟

ـ ألم تفهم؟

ـ لا. لا، لم أفهم.

ـ كلّ هذا ـ قالها غالانو وهو يرفع ذراعيه وكأنّه يحتضن بخياله المكتبَ والبيتَ والحديقةَ حول البيت والحياة التي يعيشها نوتشو بين هذا كلّه.

ـ إنّك على أيّة حال تعيش معي هنا، ثم إنّ بيتك لا يختلف كثيراً عن بيتي ـ قال نوتشو.

ـ إن كنت أعيش معك هنا، فأنا أعيش بطريقةٍ مختلفة، وهذا هو المهم في الأمر. ـ قال غالانو بلهجة المنتصر.

ـ إنّك تأكل مثلما آكل، وهناك بروليتاريّون مأجورون يخدمونك مثلما يخدمونني، تنام في سرير عليه خيمةُ الترف مثل سريري..لا بل إنّك تنام في بيتك على سرير اشتريته ظنّاً منك أنّه سرير المركيزة بومبادور..

ـ لم يكن ذاك ظنّاً ـ أجاب غالانو مستاءً ـ كان هو سريرها بالفعل. أمّا مسند كتبك فقد صُنِع منذ سنوات فقط في ايفيان، ولم يكن قطّ من مخلفات الكاتب الشهير دانّونسيو[1] في آراشون. ثم التفت نحو روغاس وقال له:

ـ إنّ لهذا كلّه مغزى واضحاً، أليس كذلك؟ لقد اشترى مسند كتب قالوا له إنّ دانّونسيو كان يقرأ عليه مؤلفات بِتْرارْك[2].

ـ حسناً، إنّ مسند كتبي زائف، وسريرك أصيل. المهمّ أنّك اشتريته وتنام عليه. الخلاصة أنّك تعيش مثلما أعيش، أصدقائي هم أصدقاؤك، ومعارفي هم معارفك، بل إنّك لا تفعل غير التردّد ذهاباً وإياباً بين سان موريس وتاورمينا ثمّ مونتي كارلو، تلعب وتدفع ثمن نزواتك العاطفية مثلما لم أفعل أنا قطّ.. وهكذا فأنا برجوازيّ أمّا أنت فلست برجوازياً..

ـ أن يكون الإنسان برجوازيّاً أو لا يكون إنّما يتوقف على هذا ـ قالها غالانو وهو يلمس منتصف جبهته.

---

(1) Gabriele D'Annunzio شاعر وكاتب ايطالي 1863ـ1938

(2) Francesco Petrarca 1304ـ1374 شاعر ومفكر ايطالي ذاعت قصائده خلال عصر النهضة في أنحاء أوربا وأصبحت مثالاً يحتذى. وكان أول من سمى العصور الوسطى بالعصور السوداء.

ـ هذا سهلٌ جداً ومريحٌ جداً ـ قال روغاس. ثمّ نهض وهمّ بالذهاب.

ـ أمّا أنت فلا يمكن لك أن تفهم ـ أجاب غالانو مترفّعاً.

كان رئيس القسم السياسي مرهقاً وكانت تبدو عليه علائم خيبة الأمل. ـ ما إن تركتَهم ـ قال لروغاس ـ حتّى أمسك غالانو بالهاتف وتكلّم بدايةً مع المدير العام لبنك الغرب، ثمّ مع رئيس معامل شيبل الصيدلانيّة، ثمّ مع مدير الجريدة الحكوميّة "النظام والحرية" ومع مدير مجلّة المعارضة المسمّاة "الشفق الأحمر" ثمّ مع الخيّاط الشهير غراديفو ومع الممثّلة ماريون ديلافين، ومع كونتِ مجموعةِ نظامِ الروح القدس ومع الملكة السابقة لمولدافيا... (كأنّها أحداث "الأرملة الطروب" أليس كذلك)، لقد كلّمهم جميعاً، وكان يتكلّم كأنّه يزغرد طرباً وفرحاً لأنّ مفتشَ شرطةٍ زاره في بيته، ولأنّ الشرطة تشكّ على ما يبدو بأنّه هو المسؤول عن عمليات اغتيال القضاة. وقد وجد الكلّ أنّ الخبر مسلٍّ وظريف. فهل تظنّ أنّ مثلَهم قادرٌ على المشاركة في مؤامرة ثوريّة أو فيما هو أكثر من ذلك مثل تأييد بعض فصول المؤامرة واغتيال القضاة؟

ـ وأنت؟ ـ ثم فكّر: لم يبق إلا أن ينسبوا لي حماقة الاتصال بغالانو.

ـ لا أصدّق مثل هذه الأقاويل حتّى في الأحلام..لقد استطعنا على أيّ حال التوصّل إلى عنصر مفيد رغم أنّه صغير استخلصناه من مكالمات غالانو الهاتفيّة: فقد قال وهو يحادث الممثلة: إذا كان لابدّ من هذا فعلى الشرطة تفتيش بعض أفراد جماعة زد، وهم فوضويّون جدد رئيسهم خوريّ سابق يدعو إلى مسيحيّة

فوضويّة إنجيليّة، ويموّل هذه الجماعة ناركو صاحب مجموعة المخازن الكبيرة المسماة إ.ش. (والاسم كما تعلم اختصار لجملة إستهلاك شريف). لكنّي أعتقد أنّه ظنٌّ فيه كثير من المبالغة إذ ليس من السهل أن يلتفت الفوضويّون الجدد الإنجيليّون إلى اغتيال القضاة: على أيّة حال فإنّي سأحاول قراءة الإنجيل ثم كلّ منشورات مجموعة زد هذه.

ـ بوسعي أن أؤكّد لك منذ الآن أنّ هناك في بعض فقرات الإنجيل أقوالاً تهاجم ممارسة القضاء بل والقضاة بالذات. لكنّه ليس من الروح الإنجيليّة في شيء الانتقال إلى العمل والتنفيذ كما نقول نحن رجال الشرطة. من ناحية أخرى فإنّه ليس من المعروف كيف يقرأ الإنجيلَ الكهنةُ ومن كانوا كهنةً، هذا إذا كانوا يقرؤونه بالفعل. ثم لا ننسَ العبارة الإنجيليّة القائلة: «لا تظنوا أنّي جئت لألقي سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا»[1].

ـ من قال هذه العبارة؟

ـ المسيح بالطبع.

ـ هه! وكلامٌ عن السيف أيضاً! ما كنت أظنّ أبداً أنّ المسيح..

ـ قد يكون ذلك مجرّد تشبيه، الكلام عن السيف أعني..

ـ لكنّ عيار 38 ليس تشبيهاً، وهو موضوع حالتنا هذه..لهذا فإنّي أشكّ بالعبارة التي تَلَطَّف غالانو وقدّمها لنا.

ـ وأنا أيضاً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) إنجيل متى، الإصحاح العاشر 34.

ـ لقد وصلتنا الفكرة ولا يمكن لنا إلا أن نعالجها. بل أظّن أنّه عليك أن تهتم أنت بالأمر...لقد ذكر غالانو خلال حديثه المذكور مع الممثّلة: "سيذهبون جميعاً هذا المساء إلى بيت ناركو، لو عرفت الشرطة بهذا السرّ...".

ـ أظن أنّ غالانو خمّن أنّ هاتفه مراقَب فأراد تدبير هذه المزحة.

ـ هل تعتقد ذلك؟ على كلٍّ، مزاحٌ أم جدّ، عليك أن تذهب هذه الليلة إلى بيت ناركو. وبالطبع فإنّنا سنطوّق البيت، وسنكون على أهبة الاستعداد. رجال الشرطة سيصلون إلى المكان فرادى وبملابس مدنيّة.

ـ لماذا لا تأتي أنت أيضا؟

ـ لا أستطيع لأنّ الوزير استدعاني لمقابلته.

ـ أخبرني إذاً ماذا عليّ أن أفعل وماذا عليّ أن أقول؟

ـ قل إنّك تريد الالتقاء بالخوريّ السابق، إنّي أنسى دائما اسمه، أو قل إنّك تبحث عن فلان الذي عرفنا أنّه موجود في بيت ناركو: اخترع أي اسم...يبدو لي أنّ هذه حيلة جيّدة، أي حيلةُ البحث عن شخصٍ غير موجود، فهي تسوّغ لنا القيام أيضاً بالتحقيق في هويّات الموجودين، الخلاصة إنّي أثق بحكمتك ولطفك.

عندما كان روغاس يدخل بصحبة شرطيّ برتبة رقيب إلى قصرٍ شيَّدهُ على الطراز الباروكي أحدُ الكرادلة ويسكنه الآن ناركو، كان رئيس المحكمة يسقط صريعاً في مدينة تيرا. لكنّ المفتّش لم يكن يفكر في تلك اللحظة بالجرائم ولا بكريس الذي كان على الأرجح هو المسؤول عنها: بل كان مشغول البال بالموقف المضحك الذي بدأ ينزلق إليه، وبأنّ زميله رئيس القسم السياسي لابدّ أن يدير ظهره

ويخذله ما إن تلمس قدماه، هو، روغاس، قاع السخرية وقاع الرعب أيضاً.

أخبرَ البوّاب باسمِه وبوظيفته. فكرّر البوابُ الاسمَ والوظيفة أمام ميكروفون مخفيّ. فسُمِعَ في الحال صوتٌ حادّ اللهجة يقول: دعه يصعد: من درجِ الخدم. ـ فأشار البواب إلى روغاس بحركة ازدراءٍ خاملة نحو الدرج.

وجدَ الباب مفتوحاً ورئيسَ الخدم واقفاً على العتبة كأنّما ليمنعه من الدخول. ـ ماذا تريدان؟

ـ التحدّث إلى السيد ناركو.

ـ لا أدري إذا كان باستطاعة السيّد استقبالكما.

ـ اذهب واسأله.

عاد وعلى وجهه تعابير مرحٍ تخفّف من إمارات الصلَف الظاهرة عليه. وهنا تولّد في نفس روغاس حدس متشائم: ذلك أنّ وجوه الخدم تنبئ عادة بمزاج أسيادهم. عبر ممراً طويلاً، ثمّ صالة مفروشة بذوقٍ حسن، ثمّ صالة أخرى مليئة باللوحات الفنيّة، لوحات فاتُو، فراغونارد، بوشيي. وحدّث روغاس نفسه: أتمنّى أن تكون هذه اللوحات زائفة على أقلّ تقدير! بعد أن اجتاز الباب وجد نفسه في صالة كبيرة جداً فسيحة الأرجاء تغصّ بالناس. وعرف روغاس في الحال أنّ زميله في القسم السياسي قد كذب عليه: فالوزير لم يدعه إلى مقابلته لأنّ الوزير بالذات هو الذي تقدّم نحوه برفقة سيّدٍ آخر لابد أنّه ناركو.

سأله الوزير بوجهٍ محتقن وبلهجة تهديديّة ـ ماذا تريدان؟ فقرّر روغاس أن يتجاهله.

ـ أن نتكلّم مع السيد ناركو ـ قالها بهدوء تام.

ـ أنا ناركو ـ أجاب الآخر. فأشار إليه الوزير بحركة تعني: اسكت أنت لأنّه من واجبي أنا إسكات هذين اللَسِنَيْن. ثمّ استدار نحو روغاس يسأله:

ـ من أنت؟

ـ أنا المفتّش روغاس، وأنت؟

ـ إنّه يسألني من أكون ـ قال الوزير لناركو بين الساخر والمزدري.

ـ نعم، إنّه يسألك من أنت ـ كرّر ناركو وقد سرّ سروراً بالغاً ومزدوجاً: لأنّ الوزير جُرِح في خيلائه، ولأنّ المفتّش سيقع بعد هنيهات في وضع محزن.

ـ ألم تعرفني حقاً؟

ـ أمّا أنا فأعرفك. قال الرقيب فرحاً مثل تلميذ أجاب عن سؤال لم يتمكن زميله في المقعد من الإجابة عنه. كان روغاس ممتلاً ناجحاً، فنظر إلى الرقيب بدهشة وتأنيب، فأردف هذا وكأنّه يهمس في أذاً روغاس:

ـ إنّه وزيرنا!

ـ هدّأت كلمة "وزيرنا" أعصاب الوزير، فنظر إلى روغاس بوجه المستعد للصفح إن طُلِبَ منه الصفحُ. عندها قال روغاس: أستميحك عذراً يا صاحب السعادة، لكنّي ما كنت أتوقّع...

ـ ما الّذي كنت لا تتوقّعه؟ أن تجدني هنا في بيت صديقي ناركو؟

ـ أعني ما كنت أتوقّع أن أُعكّر أمسيةً بين أصدقاء.

ـ لقد عكّرتها. ماذا بعد؟

ـ جئنا لنسأل السيد ناركو سؤالاً صغيراً: فيما إذا كان يعرف شخصا باسم زرفو؟

ـ ولمَ علي أن أعرفه؟ سأل ناركو.

ـ أخبرونا بأنّه من جماعة الفوضويّين الجدد المسيحيّين، وإن لم يكن من الجماعة فهو من معارفها.

ـ لم أسمع البتّة بهذا الاسم ـ قال ناركو ـ على أيّ حال فلنر إن كان أحد أصدقائنا يعرفه.. ـ تعال ـ تحرّك الأربعة بعدها نحو حلقات الحضور الجالسين أو الواقفين والذين بدأوا يتهامسون ويقهقهون سخرية منذ أن دخل روغاس والرقيب. عندما بلغ روغاس إحدى الحلقات وجد فيها غالانو جالساً على مقعد كبير جلسةً تنمّ عن الأناقة والاحترام. وكان هذا أمرا متوقّعاً.

ـ عزيزنا المفتّش ـ حيَّاهُ غالانو بمرح. ثمّ استدار نحو الوزير وقال: ـ يجب أن أخبرك يا عزيزي ايفاريستو بأنّك كذاب كبير: كنت على الدوام تنفي أنّ الشرطة تراقب هواتفنا. لكنّه تبيّن أنّها تراقبها، وكيف! وهاهو وجود المفتّش روغاس بيننا يقدم البرهان الساطع.

امتقع وجه ايفارستو وسأل روغاس: ـ هل هذا صحيح؟

أجاب روغاس قائلاً: ـ لا أعتقد.

ـ ما أروع هذا...، قال غالانو ـ الوزيرُ يسأل إذا كانت الوزارة تراقب الخطوط فيجيب المفتّش أنّ الأمر غير صحيح...ثمّ إنّ غالانو

نهض ليجابه الوزير ـ هل تعتبرني غبيّاً؟ أجبني، لا تخجل، قل لي: إنّك غبي وستصدّق كلّ ما أقوله أنا، بل وكلّ ما يقوله المفتّش.

ـ هذه كلمة شرف ـ أجاب الوزير ـ صدِّق أنّني لا أعرف شيئاً عن وجود رقابة هاتفيّة. إنّي لا أستبعد أنّها تجرى أحياناً، لكنّ هذا لا يحدث إلا بتفويض من القضاء وضدّ أشخاص متّهمين بالفعل.... أمّا الرقابة السياسيّة... أبداً.. إنّي أستبعد هذا كليّة بل وأنفيه بحزم.

ـ إذاً فأنا متّهم بالفعل ـ قال غالانو ـ لأنّ هاتفي موضوع بكلّ تأكيد تحت الرقابة... ليس هاتفي أنا بالذات بل هاتف فيلفريدو نوتشو.

هنا ارتفعت ثمّ تردّدت أصوات الدهشة والازدراء بين الحضور.

ـ على أيّة حال ـ واصل غالانو حديثه ـ أريد أن أقدّم لك نصيحة: عوضاً عن أن تمثّل أنت ومفتّشك هذه الكوميديا هنا، عليك أن تستدعيه إلى مكتبك ليروي لك كيف ولماذا أتى إلى هنا هذا المساء.

ـ تعال إلى مكتبي غداً في العاشرة ـ قال الوزير لروغاس.

ـ طبعاً ـ أردف غالانو ـ لن أعرف ما الذي سيدور بينكما غداً. لكنّي أكتفي بالذي أعرفه: ويؤسفني أن أخبرك بأنّك سترى منه شيئاً في العدد المقبل من "الثورة المتواصلة"..

ـ دعك من هذا ـ قال ناركو.

ـ لا، أبداً، لن أترك هذه المسألة تمرّ بسهولة، لن تمرّ.

ـ فلنشرب إذن ـ قال ناركو ـ ثمّ صاح على الخادم ـ الشراب للمفتّش.

وهنا تذكّر روغاس عبارة "الشراب للأب" الواردة في رواية إيطالية مملّة، وتذكّر أنّ الموقف الذي وردت فيه تلك العبارة يشبه إلى حدّ كبير الموقف الذي هو فيه. لكنّه استأنف وقال لنفسه: لقد بدأت تغالي ياروغاس فأنت لست الأب كريستوفورو[1].

ـ سكوتش، أرومانياك، شامبانيا؟ سأله ناركو.

ـ لا، شكراً.

ـ اشرب ـ قال الوزير ـ تستطيع أن تشرب الآن لأنك لست في العمل، فالعمل الذي أتيت من أجله قد انتهى الآن.

في تمام العاشرة من صباح اليوم التالي جلس روغاس في صالة الانتظار المتاخمة لمكتب الوزير فوجد فيها رئيسَ القسم السياسي، وكان قد استدعي، على ما يبدو، قبل نصف ساعة فقط. لهذا فقد كان يلهث مضطرباً وحانقاً. وقد زاد هدوء روغاس من شدّة روعه لأنّه كان على ثقة تامة بأنّ سبب ذلك ليس إلا قراراً قد اتّخذ، وبأنّ مسؤولية الحملة الفاشلة على بيت ناركو ستصبّ عليه هو. ومع أنّه كان يعتقد أنّه من العدل تحمّل تلك المسؤوليّة أمام الوزير، إلا أنّه بدأ يسائل نفسه بطريقة محمومة كيف يستطيع أن ينسب إلى روغاس بعض العيوب التي ارتكبت في مرحلة تنفيذ الخطة، بل وأن ينسب إليه الفكرة برمّتها.

لكنّ الوزير كان حسن المزاج، بل وأظهر لهما كأنّه صديق قديم، لذلك فقد تشتّتت مخاوف رئيس القسم السياسي بالنسبة نفسها التي ظهر فيها قلق روغاس.

---

(1) الأب كريستوفورو من الشخصيات الرئيسية في رواية "الخطيبان I promossi sposi " للكاتب الايطالي الكبير Alessandro Manzoni 1785ـ1873.

شدّ الوزير على أيديهما بقوةٍ وودّ، ثمّ انتقل من وراء طاولته الباردة والبرّاقة إلى إحدى زوايا الغرفة الواسعة حيث تضفي المقاعد الوثيرة والطاولة الصغيرة والبار المنزليّ جوّاً عائليّاً حميماً أراد له الوزير أن يسود هذا اللقاء بينهم. لكنّه أراد التخلص من شوكة كانت تخز حلقه فوجّه حديثه إلى روغاس قائلاً: ـ أخبرني، ألم تعرفني حقّاً في الأمس؟

ـ لقد عرفتك حالاً، يا صاحب السعادة، لكنّي أردت أن أكسب بعض الوقت لأفهم الموقف حولي.

ـ شاطر ـ قال الوزير. ثمّ توجّه نحو رئيس القسم السياسي وقال له: لا حاجة للقول إن فِعلة الأمس كانت خطأً ارتكبتَه..لكن..

ـ يا صاحب السعادة، أنا...

ـ لكنّي تعودت ألا أستشيط غضباً وألا أبكي على إبريق انكسر، هذا فضلاً عن أنّ بعض الأخطاء تتمخض أحياناً عن نتائج لها نفع غير متوقّع، رغم أنّها تختلف عن الأهداف المنشودة. فإذا كان حقّاً أنّ غالانو شعر بالانتصار مساء الأمس في صالون ناركو لأنّه نجح في اللعب على الشرطة وفي تقديم برهان على وجود الرقابة الهاتفيّة، وأنّ هذا حدث وسط ارتباكي العارم، فمن الصحيح أيضاً أنّ فرضيات متناقضة عديدة طرحت ـ على ماعرفت بعد ذهابي من الحفل، وتناولت سلوك الشرطة ومغزى وجودي صدفةً ذلك المساء في بيت ناركو الذي لم أره منذ أكثر من أسبوعين: بل إنّ إحدى الفرضيّات أكّدت أنّي لا أنا ولا الشرطة حمقى وأنّنا نصبنا سويةً فخّاً لغالانو فوقع فيه وهو ظانّ بأنّه يخدعنا. يا لأولئك الناس، حساسيتّهم بالغة، وخيالهم شطّاح: لذلك فقد طرحوا كثيراً

من الأحجيات وتحزّروا حول خططٍ لا نفلح نحن عادة وللأسف حتّى أن نفكّر فيها، ثمّ إنّهم انتقلوا من تبجّحاتهم الساخرة ليغرقوا في مشاعر خوفٍ أسود. لهذا السبب فإنّ غالانو ترك بيت نوتشو وذهب ليلاً إلى بيت سكييل خوفاً من أن يتمّ اعتقاله. هذا فضلا عن تنقّلات كثيرة أخرى: من مضيف إلى مضيف آخر، ومن البيت إلى بيت صديق.

ـ جنونيّ! قال روغاس.

ـ نعم إنّه جنونيّ ـ قال الوزير ـ لكنّي أيّها المفتّش العزيز ألعب بردود فعلهم الجنونيّة هذه، إنّني أعيش بينهم وألوِّحُ لهم بعصا التهديد مرّة وبمظلّة الحماية مرّة أخرى. ثمّ إنّ جماعة مثل جماعة غالانو وجماعة ناركو، وعلى الأخص جماعة ناركو الكاثوليكيّة الثوريّة، تفيدني أيّما فائدة، مثلها في ذلك مثل مجموعة مخازن الاستهلاك الشريف التي يملكها ناركو كما تعرف. وإذا استعملت عبارة فظّة خشنة فإنّه بوسعي أن أقول: إنّي أستهلك بيضةَ اليوم ودجاجةَ الغد، هذا بينما أنا أرتع معهم وفيما بينهم. إنّها بيضة السلطة ودجاجة الثورة... إنّكما تعرفان كيف هو الوضع السياسي اليوم، وضع السياسة المؤسّسة كما يقال. بوسعي أن ألخّصه كلّه ثمّ أكثّف الخلاصة في عبارة واحدة: ذلك أنّ حزبي الذي كان يدير الحكم منذ ثلاثين عاما بطريقة سيّئة وعن عمدٍ، تنبّأ الآن أنّ بوسعه أن يحسِّنَ طريقة الإدارة السيّئة تلك، إذا شاركه الحزبُ الثوري الدولي سدّةَ الحكم، وخاصّة إذا أتى السيد آمار ليجلس خلف ذلك الكرسي ـ وأشار إلى كرسيّه خلف الطاولة. إنّه منظر مغرٍ بالفعل، وهو يغريني أنا أيضا، ما أجمل أن نرى السيد آمار وهو

يأمر من خلف ذلك الكرسيّ بالذات بإطلاق النار على العمّال المضربين عن العمل وعلى الفلاحين عندما يطالبون بالماء وعلى الطلبة حين يطالبون بالتوقّف عن الدراسة: ذلك كما كان يفعل سلفي المرحوم، بل وبأفضل ممّا كان يفعل. لكنّ هذا مازال اليوم حلماً، والسيد آمار ليس غبيّاً، فهو يعلم حقّ العلم أنّ من الأفضل له أن أبقى أنا على ذلك الكرسيّ.

ـ لا بل إنّ هذه الوزارة مادامت تحت رعايتكم.... ـ وهنا بدأ رئيس القسم السياسي يداهن..

ـ ستبقى شبحاً أجوف، أعرف ذلك. وأعرف كذلك أنكم تفضّلون أخذ الأوامر من السيد آمار، لكنّه عليكم التحلّي ببعض الصبر.

ـ سعادة الوزير...ـ احتج رئيس القسم السياسي...

ـ أجل، أجل، أعرف ذلك، لكنّي لا أشعر بأيّ حزن في هذا المجال. وقد أسلفت بأنّني على استعداد للتنازل بكلّ سرور عن مكاني هذا للسيّد آمار. لكنّه عليكم أن تعرفوا أيضاً أنّ هذا البلد لا يحتقر حتّى الآن حزب السيد آمار بمقدار احتقاره لحزبي. وأنتم تعلمون أنّ أساس السلطان في نظامنا هو الاحتقار. لذلك فإنّ رجال السيد آمار يبذلون اليوم قصارى جهدهم لكي يستحقّوا ذلك الاحتقار: ولابدّ أنّهم سيصلون يوماً ما إلى مرامهم. ولا بدّ أنّهم سيعرفون عندما يصلون إلى مرامهم ماذا عليهم أن يفعلوا لكي يصبح الذي استحقّوه أمراً شرعياً. لأنّه إذا كان النظام يمنح السلطة بواسطة الاحتقار، فإنّ الظلم وممارسة الظلم هما السبيل الوحيد لتحصيل شرعيّة السلطة. من جهة أخرى نجد أنّنا نحن، أي كلّ أعضاء حزبنا الذين يتعاقبون على الكراسي الوزاريّة، بدأوا يظهرون الشفقة وهم

يمارسون الظلم، لأنّ بُنْيتنا وظروفنا تفرض علينا هذا، ولأنّنا لن نزيد أو لن نستطيع أن نزيد من ظلمنا الذي بدأ على العكس من ذلك يتناقص. هذا في الوقت الذي يزداد فيه تعطشكم أنتم للظلم، ولا أخصّ في هذا الكلام رجال الشرطة فقط.

كان رئيس القسم السياسي ينظر إلى الوزير بعينيّ أرنب أعشتهما أنوارُ سيارة. بينما كان الوزير ينظر إليه نظرة تنمّ عن السخرية. وكذلك روغاس. فكّر هذا بأمر الوزير. إنّه ليس مجنوناً، رغم أنّه شعر بأنّ الوزير كان يمثّل ويلقي عبارات لابدّ أنّه سمعها من غيره.

ـ ولكي أشجّعك ـ قال الوزير لرئيس القسم السياسي ـ ولكي أساعدك على إدراك الرضى الذي بدأت تكتسبه والذي سيدعمك في المستقبل، فإنّي أقول لك إنّ ما تفعله، وما أجعلك أنا تفعله، إنّما يتجاوب كليّاً مع رغبات السيد آمار.

ـ وماذا فعلت أنا يا سيادة الوزير؟

ـ ألا تعرف؟ ـ سأله الوزير بدهشة ساخرة ـ استمروا إذن، واصلوا مضايقاتكم لمختلف الجماعات، افعلوا هذا بأقصى استطاعتكم. تفتيش بيوت، توقيف، اعتقال: بموافقة القضاة طبعاً... لقد اغتالوا مساء الأمس واحداً آخر منهم: لذلك فإنّهم لن يرفضوا لكم طلباً من هذا النوع.

ـ يبدو لي يا سيادة الوزير أنّنا تركنا الطريق السليمة واتّبعنا أخرى خاطئة. أعني التحقيق باغتيال القضاة.

ـ نظر الوزير إلى روغاس بإشفاق وحذر. ثمّ قال:

ـ ربّما. لكن واصلوا السير عليها.

ـ لدى خروجهما من الوزارة سأل رئيس القسم السياسي روغاس:

ـ ما رأيك؟

ـ لا رأي لي. لو كانت لي آراء لكنت غيّرت مهنتي، عندي مبادئ فقط. وأنت؟

ـ ليست لي آراء ولا مبادئ. لكنّ حديث الوزير هذا...

ـ لاحظت ذلك: لقد اضطربتَ بسببه.

ـ لا، لم اضطرب، لا اضطرب لمثل هذا.

ـ إذاً؟

ـ لا، لا شيء. لكنّي كنت أفكّر: لماذا قال لي، لنا، مثل هذه الأقوال؟

ـ طبعاً: لنا.

ـ لابدّ أنّ هناك سبباً ما، خطّة ما. أنا واثق انّك ستكتشفها ـ قال روغاس وهو يغطّي السخرية بالتملّق.

ـ حتماً ـ جاب وقد التقط طُعْمَ التملّق.

ـ لكن ماذا بوسعنا أن نفعل الآن؟

ـ وماذا نفعل الآن؟ أجابه الآخر.

ـ بودّي أن أذهب إذا سمحت لي، لزيارة رئيس المحكمة العليا. فلا بدّ أن دوره سيصل عاجلاً أو آجلاً.

ـ دوره بماذا؟

ـ الضربة. ولا يهمّ من الذي سيوجهها: صاحبي أو جماعاتك.

ـ هل تعتقد أنّهم سيجرأون ويصلون إلى رئيس المحكمة العليا؟

ـ ولم لا؟

ـ يا إلهي! قالها وهو يتنهّد.

ـ أظنّ أنّه يجب علينا تحذيره.

ـ حتماً، لكن بحذر، بدبلوماسيّة.

ـ ما رأيك بالذهاب؟ وكانت هذه أفضل طريقة لحمل رئيس القسم السياسي على الافتخار بسلطته والخوف من المسؤولية في نفس الوقت.

ـ لا، لا، اذهب أنت. أنا لديّ أعمال أخرى. وهذا يعني أنّه لم يكن لديه أيّ عمل.

ـ حسناً، سأذهب بعد الظهر.

كان رئيس المحكمة العليا يسكن في ملحق عمارة محاطةٍ بمجموعة من الحدائق تقع خارج سور المدينة. كانت هذه العمارة في السابق سكناً لعائلة دوق كونكورديو. وكانت رابطة حماية الطبيعة والحدائق الخضراء قد أشعلت معركة ضارية عندما أقاموا حينها في منطقة الحدائق مجموعة أبنية سكنيّة منها هذه العمارة. ومالبث الأمر أن اختلف وتبدّلت الصورة عندما ضمّت هذه المنطقة السكنيّة بيوت عضوين أو ثلاثة من أعضاء مجلس إدارة تلك الرابطة، فضلاً عن سكن وزيرين وعشرة نواب (من اتّجاهات سياسيّة مختلفة: مختلفة من الناحية النظريّة) بالإضافة إلى بيت لرئيس المحكمة العليا وآخر لنائبها العام.

يتمّ الدخول إلى المنطقة السكنيّة من خلال أبواب عليها حراسة مشدّدة. اجتاز روغاس كلّ الأبواب بعد أن أظهر للحارس هويّته وبعد أن أخذ هذا برأي الشرطي الواقف إلى جانب كوّة الحارس الزجاجيّة ـ الإسمنتيّة. دلّوه على الشارع الذي يقود نحو عمارة الرئيس ريكس. يمرّ الشارع بين أشجار باسقة ثمّ يقود بغتة إلى فسحة تنتصب فيها عمارة ذات ثلاثة أدوار مبنيّة وفق هندسة تعيسة الذوق غير متناسقة. كان هناك في الفسحة خمس سيارات مصطفّة، عرفها روغاس في الحال (من حجمها وألوانها ولوحاتها الممهورة بحروف تدلّ على أنّها سيّارات حكوميّة، بما أنّه لا يعرف أنواع السيارات المختلفة الأخرى). وكان سائقو هذه السيّارات متحلّقين حول سيّاراتهم يتسامرون فيما بينهم. كان أحدهم يرتدي زيّاً عسكرياً: رقيب في سلاح الطيران. وعندما اقترب منهم عرف روغاس بين الخمسة سائقَ رئيس الشرطة: ومع أنّ هذا كان يرتدي ملابسه المدنية فقد حيّا روغاس تحيّة عسكريّة.

كانت هناك كوّة أخرى، زجاجيّة بالكامل هذه المرة، منتصبة في منتصف الباحة. وكان في داخلها بوابّ آخر. أظهر روغاس بطاقته مرّة أخرى وقال إنّه جاء ليتكلّم إلى الرئيس ريكس: هذا إذا قبل سيادته أن يستقبله. أغلق البوّاب زجاج الكوّة وتكلّم بالهاتف الداخليّ. ثم فتح زجاج الكوّة وأخبره أنّه ليس بوسع الرئيس استقبال أيّ كان في تلك اللحظة، وعلى أيّ حال لابد من أخذ موعد مسبق لأيّة زيارة. ـ هل لي أن أرجو ـ قال روغاس بنوع من السخرية ـ أن يستقبلني الرئيس غداً في مثل هذه الساعة؟ ـ لكَ ذلك ـ قال البوّاب بحدّة. ثمّ كتب على ورقة "الرئيس ريكس، مفتّش شرطة غداً الساعة 17". ـ شكراً ـ قال روغاس، ثمّ أضاف،

ولم يكن بنيّته أن يقول شيئاً، لكنّه تعوّد على الفضول، وسأل وهو يشير إلى السيّارات في الخارج:

ـ هل هؤلاء السادة موجودون لدى الرئيس؟

نظر إليه البوّاب بحذر غاضب. ثم أجابه بسؤالٍ آخر:

ـ لماذا تريد أن تعرف ذلك؟ وأغلق زجاج الكوّة: أغلقه لأنّه لم يكن ينتظر جواباً، وما كان يريد جواباً. أمّا الـ لماذا التي نطقها فكانت مجرّد تأنيب. ذلك أنّه لا يسمح لأيّ لماذا أن تدخل ضمن فضول مفتّش شرطة صغير تجاه أشخاص أقوى منه بكثير، لدرجة أنّ بوّاب عمارتهم يشعر بأنّ قوتهم تسري إليه. قال روغاس في نفسه: طبعاً، لماذا؟ ولم يكن يشير إلى فضوله بل كان يتساءل عن ذلك الاجتماع.

مرَّ من جديد أمام جماعة السائقين، فحيّاه سائق الرئيس من جديد. طبعاً، لماذا؟ رئيس الشرطة، وضابط كبير في الطيران، أمّا السيارات الثلاث الأخرى؟ فأن يكون لدى رئيس الشرطة ما يقوله لرئيس المحكمة العليا فهذا أمر لا غبار عليه، أمر عادي، لا بل من صلب النظام، نظاميّ تماماً. على أن يجري هذا في المكتب، أمّا أن يجري في البيت فهذا أقلّ نظاميّة. لكن وضابط الطيران؟ لربّما كان قاضياً عسكرياً! لكن لماذا يجتمعون سوية، رئيس الشرطة مع قاض عسكريّ؟ والثلاثة الآخرون؟

ترك الباب الخارجي. الطريق الضيّق كان للسير باتّجاه واحد. خطا حوالي مائة خطوة، فوصل إلى آخر خطّ الباص. وكان الباص ينطلق من آخر الخط مرّة فقط كلّ ساعة، لأنّ الناس الذين يسكنون هذه المنطقة لا يحتاجون كثيرا إلى الباصات. وبما أنّ الباص لم يكن

موجوداً فقد أخرج روغاس صحيفة فتحها على الملحق الأدبيّ. وهناك وجد مقالات عن ترجمة رواية لمورافيا، عن حكايات لسولجنستين، عن دراسات لليفي شتراوس، سارتر، لوكاش. ترجمات، ترجمات. حاول أن يقرأ، لكنّه كان يرفع عينيه عن الصحيفة كلّما مرّت أمامه سيّارة. ذلك أنّه قرّر دون أن يتّخذ في ذلك قراراً أن ينتظر مرور السيّارات الحكومية الخمس، عسى أن يرى من فيها، فمن الجائز أن يكون فيها زوجات أولئك السادة المتنفّذين، خاصة وأنّ الزوجات يستعملن سيّارات الدولة أكثر من أزواجهنّ. كان من واجبه توقّع مثل هذه الخطة، وجود سيّدات. لأنّ اجتماع سيدات مرموقات هو أكثر منطقيّة من اجتماع أزواجهنّ. لكنّ الرئيس ريكس كان أعزب بل وعدوّاً للنساء أيضاً: لا بدّ إذاً أن يستبعد فرضيّة استقباله للنساء.

وصل الباص بعد حوالي ساعتين، أي بذلك التأخّر الذي ينعم به الركّاب في هذا البلد، حتّى لو كانوا ركّاب طائرة. وكان هذا التأخّر من حسن حظ روغاس، لأنّه سيبدو غريباً أن يبقى المرء في انتظار الباص عندما يكون الباص قد وصل وسار. رأى روغاس السيّارات الخمس تمرّ أمامه، وقد تأخّرت الواحدة عن الأخرى حوالي خمس دقائق. خمس في خمس، خمس وعشرون: خمس وعشرون دقيقة هي من ضمن وقت تأخّر الباص. لماذا لم يكونوا مع بعض؟ وراء بعض؟ هل هو حذر؟ لماذا؟ من ماذا؟

تعرّف روغاس إلى رئيسه في إحدى السيّارات ومعه الجنرال آمر الدرك القوميّ ثمّ رأى في سيّارة أخرى وزير الخارجية، ولم يكن واثقاً من الأمر لأنّ هذا كان منزوياً في زاوية السيارة حتى بدت وكأنّها فارغة، أمّا الاثنان الآخران فلم يعرفهما. لكنّ جنرالاً من

سلاح الطيران حتّى لو كان يرتدي ملابس مدنيّة لابدّ أن يكون في السيّارة التي يقودها الرقيب الطيّار: فكرة حمقاء في رأس جنرال، فكّر روغاس. إنّه يرتدي ملابس مدنية حذراً واحتياطاً، لكنّ سائقه يرتدي الملابس العسكرية.

عندما وصل الباص أسرع روغاس لركوبه، وكان مرهقاً. لم يشعر بالتعب قبلها لأنّه كان يضرب أخماساً بأسداس. أمّا الآن فقد شعر به، شعر به يصعد حتّى الرأس. غير أنّه كان معتاداً على هذا الوضع. عادة، عندما تنسفح خواطره وتصل إلى حدّ القلق والهوس فإنّه كان يُبعدها بكل قواه ويترك بينه وبينها ما يشبه الستار. وكان الستار الذي استخدمه هذه المرة هو ذلك الملحق الأدبي.

في الغد استدعاه رئيس الشرطة على عجل. كانت هيئته قاتمة، تهديديّة، وقال له دون أن يردّ على تحيّته بل ودون أن يدعوه إلى الجلوس: ـ لماذا ذهبت مساء الاثنين إلى دار رئيس المحكمة العليا؟

شرح روغاس سبب ذهابه. فتحوّلت تعابير الرئيس من قاتمة إلى ساخرة ثمّ قال:

ـ "لديك حاسّة شمّ لا تخطئ!" ـ لكنه حمّل كلمة لا تخطئ معناها العكسي ـ "لابد أنّك مازلت تجري وراء صاحبك كريس".

ـ إنّي لا أجري وراءه بالذات ـ قال روغاس. إنّي أجري وراء أمرٍ سيتحقّق بين لحظة وأخرى، أي وراء محاولة لاغتيال الرئيس ريكس. وماذا يهمّ إن اغتاله صاحبي كريس، أو اغتالته جماعاتك السياسيّة..

ـ أعتقد أنّ الرئيس محروس بما فيه الكفاية ـ قال الرئيس.

ـ أعرف ذلك. لكنّي أودّ، إن كنت توافق، أن أتحدّث إليه.

ـ الحقيقة أنّك لا تريد أن تقلع من رأسك فكرة كريس هذا. على أيّة حال، اذهب إلى الرئيس إذا شئت: إنّه ينتظرك عصر هذا اليوم. لقد كلّمني بالهاتف مساء الأمس وقال لي إنّك ذهبت مساء البارحة إليه ولم يتمكّن من استقبالك، وكان متذمراً من بعض الأسئلة التي طرحتها على البوّاب...هل تعلم؟

ـ سؤال واحد ـ قال روغاس. وفكّر: لكنّه بيت القصيد.

ـ حسناً، كان سؤالاً واحداً لكنّه لم يكن لبقاً.

ـ ذلك أنّي عندما رأيت سيارتك ظننت أنّك ذهبت إلى الرئيس للسبب نفسه الذي كنت أنا...

ـ كانت هناك سيّارات حكوميّة أخرى: هل ظننت أنّنا كنّا هناك جميعاً للسبب نفسه؟

ـ لم أهتمّ ببقيّة السيارات.

ـ لا؟ قال الرئيس بحذر ساخر.

ـ لا، سألتُ عنها جميعها لكي لا يفهم البوّاب السبب المحدّد لفضولي.

ـ على أيّ حال لم نكن عند ريكس. لقد دعانا السفير الإيطالي[1] الذي يقطن في العمارة نفسها إلى حفل استقبال صغير. وكان من الواجب علينا أن نذهب، فأنت تعرف أن أشدّ ما يستاء منه الإيطاليّون هو أن يترفّع عليهم مخلوق، سرعان ما يستاؤون...

---

(1) أورد الكاتب اسم ايطاليا على أنها دولة أجنبية لها سفارة على أساس أن أحداث هذه الرواية تجري في بلد من نسج الخيال.

ـ فهمت ـ قال روغاس.

ـ اذهب إذاً إلى الرئيس. أوصيك باللباقة. ـ ثم أشار بحركة تدعوه إلى الانصراف، وعاد ببصره نحو أوراقه المنثورة أمامه على الطاولة.

وبالطبع عمل روغاس في الحال على التحقّق مما سمعه. دخل غرفة عموميّة للهاتف، فبحث عن رقم هاتف السفارة الإيطاليّة وتكلّم معها، مع بيت السفير (وكان هذا في عمارة الرئيس بالفعل).

كان في سبيله لإغلاق الخطّ بعدما تأخّر الجواب، لكنّ صوتا حاداً أجابه. ـ العفو ـ قال روغاس ـ يظنّ الجنرال فابيرت أنّه نسي عندكم مساء الأمس مصنّفاً صغيراً. من؟ متى؟ ـ الجنرال فابيرت، مساء الأمس. ـ وأين؟ ـ لديكم، في بيت السيّد السفير. ـ اسمع: إنّ السفير في إجازة منذ أسبوعين، البيت مغلق، وأنا موجود هنا بمحض الصدفة. هذا الجنرال، ما اسمه؟ لابد أنّه نسي مصنّفه ذاك في السفارة.

ـ هذا ما أظنّه أنا أيضاً، شكراً. ـ ثمّ أغلق الخط مسرورا.

حان وقت الغداء، فتوجّه روغاس نحو مطعم يوم الخميس: لأنّه كان يرتاد مطعماً مختلفاً كلّ يوم من أيّام الأسبوع. كانوا سبعة، ولهذا فهم يعتبرونه جميعا زبوناً مواظباً ومفروغاً من أمر مواظبته إلى درجة تسمح لهم بمعاملته معاملة سيّئة. وكان روغاس، مثله مثل أيّ مفتّش يحترم نفسه، أي يحترم نفسه بصورة تؤثّر في القرّاء، كان يعيش بمفرده، وحيداً، ولم تكن في حياته نساء (على ما يبدو، ذلك أنّه تذكر وبغموض شديد أنّه كان متزوجاً ذات مرة).

جلس على مائدته المعهودة قرب الزاوية، اختار أطباقه ونبيذه بدقّة. لكنّه أكل دون شهية، وكان مشتّت الذهن. فقد نشأت الآن مشكلة أخرى داخل مشكلة سلسلة الجرائم التي كان يشعر أنّ واجبه المهني والوظيفيّ يحتّم عليه حلّها وتسليم المسؤول عنها إلى القانون بل إلى العدالة، والمشكلة الجديدة هي مشكلة إجراميّة تماما في نوعيّتها، يتوجّه جرمها ضدّ المفاهيم الأساسيّة للدولة، لكنّ عليه أن يحلّ هذه المشكلة الجديدة خارج مكتبه، بل ورغماً عن أنف مكتبه. أي أنّ عليه من الناحية العمليّة أن يدافع عن الدولة ليدرأ عنها خطرَ ممثّليها، خطرَ الذين يمسكون بزمام أمورها، خطرَ الذين يعتقلون الدولة. الدولة المعتقلة. لكنّه كان هو معتقلاً أيضاً: لذلك، ما كان بوسعه إلا أن يحاول فتح شرخٍ في الجدار.

هنا فكّر بصديقه كوسان، فكّر بالذهاب إليه ليقضي الأمسية عنده بعد لقائه مع ريكس.

لكنّ خاطرةً برقت في ذهنه وهو يهم بالخروج من المطعم: لا بدّ أنّ رئيسه أمسك بالهاتف حالاً بعد أن صرفه، وأمر بمراقبة تحرّكاته. هذا أمر بدهيّ، وكان عليه أن يفكّر بهذا من قبل. شعر حالاً أنّه موجودٌ في عين شخص ينظر إليه، لذلك فقد بدأت خطاه تتعثّر ويتعرقل سيره. بدأ يتجنّب التوقف أمام واجهات المحلات حتّى عندما يرى فيها ما يغريه: لأنّ التوقّف أمام الواجهات هو فعلةٌ يفعلها من يعرف أنّه مراقَب أو يشكّ في ذلك. ذهب إلى البيت وهو يقاوم رغبته في الالتفات. مرّت هناك ساعة قضاها بين حلق ذقنه والمطالعة. لدى خروجه رأى خلف الباب الزجاجي الشخصَ الذي يراقبه، كان يقف على الرصيف المقابل للعمارة. أمّا الآن فإنّ

القواعد تقضي بأن يأتي شخص آخر للمراقبة، ولابدّ أن يكتشفه في الباص. وبالفعل فقد اكتشفه من خلال نظرة اختلسها في آخر الخط، وهو يترجّل.

لحق به الرجل حتّى وصل إلى الباب الخارجي. وعبره بالطبع. ومع أنّه لم يره فقد كان بوسع روغاس أن يرسم خريطةً لكلّ تحركاته. لابد أنّه سيمشي الآن حوالي خمسين متراً ليعود بعدها أدراجه، ولن يعبر البوابة مرّة أخرى بل سيذهب بحثاً عن هاتفٍ يطلب منه شخصاً آخر يحلّ مكانه. ثم ينتظر أمام الباب متخفّياً ما أمكنه ذلك. كلبٌ يأكلُ كلباً. فكّر في سرّه، لكنّ هناك فرقاً بين الكلاب.

كان البوّاب في القفص الزجاجي وسط الفسحة يبدو بين انعكاسات النور وكأنّه فرخ سمكٍ قرش يرتطم بجدار حوض أسماك زجاجيّ. عرفه هذا في الحال، ورفع إصبعيه كأنّما ليقول إنّ البيت في الدور الثاني.

عندما كان روغاس يخرج من المصعد في الدور الثاني فُتِح له واحدٌ من أربعة أبواب. وقاده خادم يرتدي سترةً مخطّطة، لابدّ أنّه شرطيّ (أو شرطيّ متقاعد نظراً لسنّه المتقدّم)، قاده نحو مكتب فسيح الأرجاء يخيّم عليه جوّ من النظام. في صدر غرفة المكتب، وعلى مقعد في الزاوية، كان الرئيس جالساً خلف سحابة من دخان أزرق. قال له ـ تعال ـ وعندما اقترب منه روغاس أشار إليه بمقعد ـ تفضّل.

حيّاه روغاس، ثم جلس. رمقه الرئيس، من وراء عدستي نظّارته، بنظرةٍ لاسعةٍ عدائيّة. ثم عبَّ مرتين من لفافة الدخان ونفث الدخان في شعاع شمس كان يغطيّه مثل الخمار. أخيراً قال له

بتؤدة، بل بازدراءٍ لا يصدر إلا عن كائنٍ حيّ خالدٍ لا يفنى ولا يصاب بمكروه عندما يتحدّث إلى مخلوق فانٍ هشٍّ التكوين رقيقِ الجسم ـ أنت تعتقد أنّهم سيغتالونني.

ـ أعتقد أنّهم سيحاولون ذلك.

ـ مَنْ: الجماعات، أم ذلك الشخص الذي تظنّ أنّه وقع ضحيّة خطأ؟ خطأ قضائيّ كما يقال ـ ولفظ عبارة "خطأ قضائيّ" بطريقة خرجت بها الحروف تصكّ كأنّها سكّين تُشحذ على حجر المسنّ، وتُطلِقُ شررَ الازدراء. ـ ذلك الشخص أعني كريس.

ـ كريس، نعم..حاول قتل زوجته: كانت خطّته ساذجة بالفعل، لكنّها من الخطط التي تنجح عادة ...بماذا حُكم عليه؟

ـ خمس سنوات في محكمة البداية، ثمّ أكّدتها سيادتك في الاستئناف.

ـ لست أنا ـ قال الرئيس، وهو يضع راحتيه على صدره ليحرّكهما بعدها باتّجاه روغاس كمن يدفع عنه أمراً كريهاً.

ـ العفو: أعني من قبل المحكمة التي كنت ترأسها.

ـ صحيح، من المحكمة التي كنت أرأسها ـ. قالها بسرور المتسامحين، مثل أستاذ حصل أخيراً على الجواب الصحيح من تلميذ ذي مخّ يابس.

ـ وماذا يعني هذا؟ ـ كان خطأ، خطأ قضائيا، كما يقال.

ـ يعني؟

ـ كان بريئاً.

ـ أحقّاً؟

ـ أظنّ ذلك.

ـ هل كان بريئاً أم أنّك تظن أنّه كان بريئاً؟

ـ أظنّ أنّه كان بريئاً؟ لكنّه لا يمكن لي أن أكون واثقاً كلّ الثقة.

ـ آه، لا يمكن لك أن تكون واثقاً...قالها، وهو يبتسم ساخراً من علياء يقينه.

ـ لديّ اعتقاد غير مطلق، بل على جانب من الشكّ...بأنّه أُدين ظلماً.

ـ غير مطلق، على جانب من الشكّ... أقوال مسليّة بالفعل. ـ ثمّ انتقل من السخرية إلى المأساويّة، وكأنّه طُعن في صدره. ـ لكن هل ناقشت أنت في مرّة من المرّات مسألة الحكم القضائي؟ ـ ثم تقلّب في مقعده لحظةً من الزمان، وكأنّه بدأ ينازع بسبب هذه المشكلة.

ـ دائماً ـ قال روغاس.

ـ وهل وجدت لها حلاً؟

ـ لا.

ـ هذه هي المشكلة: أنت لم تجد حلاً.. أمّا أنا فقد وجدته بالطبع. رغم أنّه ليس حلاً نهائيّاً ولا كاملاً. في هذه الآونة مثلاً، وأنا الآن معك، يمكنني أن أقول عن القضيّة التالية التي عليّ أن أرأس جلساتها إنّها مازالت دون حلّ بالنسبة لي. لكن انتبه: فأنا أتكلّم عن القضيّة القادمة. وليس عن القضيّة التي مرّت عليّ قبلها أو عن قضيّةٍ من عشر أو عشرين أو ثلاثين سنة. لأنّي وجدت حلاً لكلّ مشكلة في القضايا السابقة، كلّها على الإطلاق. وجدت الحل في الحكم الذي نطقت به، في عمليّة الحكم بالذات...هل أنت كاثوليكيّ تمارس واجباتك الدينية؟

ـ لا.

ـ لكنّك كاثوليكيّ؟

ـ أتى روغاس بحركة تعني: مثلي مثل الجميع. لكنّه فكّر أنّ الجميع اليوم كاثوليكيّون بالفعل وأينما كانوا.

ـ بالطبع مثل الجميع ـ فهم الرئيس الحركة على محملها السليم. ثمّ قال وقد اتّخذ هيئة خوريّ أثناء التدريس الديني ـ لنأخذ مثالَ القدّاس: عندما يصبح الخبز والنبيذ جسداً ودماً، وروحاً للمسيح. قد يكون الكاهن الذي يقود القدّاس إنساناً غير جدير بهذه المهمّة في حياته وفي أفكاره: لكنّه ما إن يستلم المهمّة حتى يكون الأمر نفسه قادراً ولابدّ على أن يجعل المعجزة تتحقّق دائماً وفي كلّ احتفال. إنّه لا يمكن لهذه المعجزة إلا أن تتمّ، دائماً وأبداً. إنّ الأمر نفسه يحدث مع القاضي وهو يمارس القانون. فالعدالة لا يمكن لها إلا أن تتجلى حينها، وأن تتحوّل إلى جسد وروح، تماماً كما يحدث في القدّاس. يمكن للقاضي أن يغضب قبل الجلسة وأن يتفتّت، أن يقول في سريرة نفسه وهو يؤنّب نفسه: إنّك لست جديراً بهذه المهمّة، إنّك إنسان بائس، تجرجره الغرائز، مضطرب الأفكار، عبد للشهوات والأخطاء. لكنّه ما إن يفتتح الجلسة حتّى ينتهي كلّ هذا، وسيصبح متهياً بالطبع بعدها. هل سمعت بكاهنٍ يقول بعد أن أنهى القدّاس: من يدري إذا كانت المعجزة قد تمّت اليوم؟ لأنّه ليس في الأمر شكّ: لقد تمّت. بل إنّي أزيد: لقد تمّت وما كان من المستطاع تجنّب ذلك. حاول أن تتخيّل ذلك الخوريّ الذي راوده الشكّ وهو يقيم القدّاس، لقد طفَرَ الدمُ وانسكب على ثيابه. ومن هنا يمكنني أن أقول: إنّه ما من قضيةٍ دَمَتْ بين يديّ، كما أنّ أي قضيّةٍ لم تلوّث عباءتي.

تنهّد روغاس بصورة غير إراديّة، فنظر إليه الرئيس بازدراء. لكنّه، وكما يحدث في الألعاب الناريّة، نظنّ أنّ النار قد همدَت وأطبق الظلام، ثمّ ما نلبث أن نرى ناراً أخرى أشدّ بريقاً وأقوى إنارة، تشتعل وتنطلق لتزمجر وتنفرش، بالطريقة نفسها استأنف ريكس كلامه:

ـ طبعاً، أنا لست كاثوليكيّاً. بل إنّي لست مسيحيّاً على الإطلاق.

ـ طبعاً ـ ردّد روغاس بِمِثلِ الصدى. ولم يشعر حقّاً بأيّة دهشة. لكنّ الرئيس شعر بخيبة أمل، بحنقِ شخصٍ انتهى لتوّه من تقديم لعبةٍ من ألعاب الخفّة، ثمّ رأى طفلاً بين الجمهور ينهض ليقول له إنّه فهم اللعبة والخدعة، لهذا فقد صاح بشيئ من الهستيريا ـ الخطأ القضائي غير موجود.

ـ لكن، ودرجات الحكم، إمكانية الاستئناف والنقض.. ـ لاحظ روغاس.

ـ تعني أنّه يمكن لنا أن نفترض إمكانيّة حصول الخطأ... لكنّ الأمر يختلف هنا. إنّه افتراض وحسب، إنّه يفترض وجودَ رأيٍ، ولنُسمِّهِ علمانيّاً، عن العدالة، عن إدارة العدالة: إنّه رأي من الخارج. ومثال ذلك أنّ الدين عندما يأخذ بعين الاعتبار آراءً علمانيّة عن الدين فإنّه سيصبح ديناً ميّتاً حتّى لو لم يعلم بذلك. وهكذا هو القضاء. وإدارة القضاء: إنّي أستخدمٍ تعبير الإدارة إرضاءً لك، لكنّني استعمله دون أن ألقي عليه أيّ ظلّ من ظلال الدولة أو البيروقراطيّة. ثمّ أضاف بلهجةٍ منفعلة ومقنعة بل وحزينة أيضاً ـ بدأ كلّ الأمر... على وجه التقريب.. مع جان كالاس[1]: ذلك أنّه علينا ذكر نقاط معيّنة مثل

---

(1) Jean Calas 1698ـ1762 كان بروتستانتياً يعيش في فرنسا. حكم عليه بالموت فأصبح رمزاً في فرنسا لعدم تسامح الكاثوليك مع البروتستانت.

الاسم والتاريخ عندما نريد أن نتعرّف إلى هزائم الإنسانية الكبرى أو انتصاراتها الكبرى...

ـ بدأ مع من..؟

ـ جان كالاس: "إنّ[1] مقتل كالاس الذي تمّ في تولوز في 9 آذار 1762 وبسيف العدالة بالذات كان من أغرب الأحداث التي تستحق الاهتمام في عصرنا هذا وما سيليه...".

ـ "...إننا سرعان ما ننسى الكثرة الكثيرة من الذين يقضون نحبهم خلال الحروب، ليس وحسب لأنّهم ماتوا قضاءً وقدراً مُقدّراً، بل لأنّهم كانوا أيضاً في وضعٍ يمكّنهم من إنزال الموت بأعدائهم ومن الدفاع عن أنفسهم قبل أن يسقطوا موتى. وهكذا فإذا كان كلٌّ من النفع والخطر متساويين فإنّ الألمَ يزول وتنحسرُ الدهشة، بل وتنعدم الشفقة والرأفة. لكنّه إذا سقط ربُّ عائلةٍ بريء ضحيةً لخطأ ما، أو ضحيّة عاطفةٍ مضطرمة أو مغالاة أو تعصّب، وإذا لم يكن لدى هذا المتّهم ما يدافع به عن نفسه سوى الإعلان عن براءته والاستشهاد بفضائله، وإذا كان القضاة الذين يقرّرون مصيره لا يجازفون بشيء عندما يحكمون عليه بالإعدام إلا بأن يقال عنهم إنّهم أخطؤوا، أي إذا كانوا قادرين على القتل بحكمٍ محكمة دون أن ينالهم أيّ عقاب، فإنّ الأصوات جميعها ترتفع، يرتفع الصوت العام، لأنّ كلّ إنسان سيخاف آنئذ على نفسه". هل قرأت هذا النص؟

---

(1) "Le meurtre de Calas, commis dans Toulouse avec le glaive de la justice، le 9 mars 1762, est un des plus singuliers evenements qui meritent l'attention de notre age et de la posterite ..."

فردّدَ روغاس بطريقة مسرحية: إنّه نصّ من مقالة عن التسامح بمناسبة موت جان كالاس[1].

ـ آه، لقد قرأته إذاً ـ قال الرئيس ـ ثمّ أضاف بلهجةٍ ساخرة يرنّ التهديد في صداها ـ إنّ الشرطة عندنا مترفةٌ إلى حدّ لا يصدّق.

ـ إنّي أسمح لنفسي بمطالعة بعض الكتب ـ وضّح روغاس الأمر.

ـ والشرطة تسمح لنفسها باحتواءِ مفتشٍ مثلك. لكن دعك من هذا... جان كالاس إذاً..... ذلك الكتاب، ثمّ كلّ ما كتبه فولتير حول ميتة كالاس، كلّ هذا أعرفه عن ظهر قلب أو أكاد. لأنّه كان بداية الخطأ: الخطأ القائل بإمكانيّة وجود ما يسمى بالخطأ القضائيّ.. طبعا.. لا يمكن لهذا الخطأ أن ينطلق من الفراغ، ولن يبقى على ما هو عليه معزولاً أو قابلاً للعزل: إنّ له تربته الخصبة وله سياقه الخاصّ به...لقد أمضيت زمناً طويلا من حياتي، قضيت ساعات لا متناهية تسمّى عادة بأوقات الفراغ، الفراغ من مشاغل المكتب، ولا توجد بالنسبة لي مثل هذه الساعات: قضيتها في نقد فولتير حول قضيّة جان كالاس. أي في نقد فكرة العدالة والقضاء، وإدارة القضاء، كما تنطلق من تلك القضيّة وبالطريقة التي عالجها فولتير ـ ثمّ أشار إلى المنضدة حيث كوَّمَ أوراقه أجزاء أجزاء، متراكمة فوق بعضها لتشكّل عموداً مرتفعاً ـ هاهو نقدي، هاهو كتابي، وهاهي منطلقاتي.

ـ وهل ستنشرها؟ السؤال نفسه الذي طرحه قبل أيام على فيلفريد نوتشو.

---

(1) Traite sur la tolerance a l'occasion de la mort de Jean Calas.

لكنّ الرئيس، على العكس من نوتشو، لم يبهت للسؤال. ـ حتماً، سأنشرها حالما تتحقّق الشروط التي تضمن نجاح الكتاب. لا أتكلّم بالطبع عن النجاح الماديّ، العمليّ، بل النجاح المثالي... وأظنّ أنّ هذا سيتحقّق قريباً... لأنّ عصر الجماهير بدأ كما ترى، وهذا شرط من شروط الرجوع إلى الوراء، والانطلاق من جديد بالخطوة الصحيحة. انتبه إلى هذه الأفكار... ـ ثمّ تقدّم على مقعده وانحنى نحو روغاس بابتسامة خبيثة بينما اشتعلت عيناه بقلق محموم. ففكّر روغاس في سرّه أنّ مثل هذا يحدث في مشافي المجانين حيث تجد من يستوقفك ليشرح لك أبعاد طوبائيّاته ونظريّاته المثاليّة.

ـ انتبه إلى أفكاري هذه، تابع ما أقول.. النقطة الضعيفة إذاً في منطلقات فولتير، والنقطة التي أنطلق منها لأضع الأمور في نصابها، موجودة في الصفحة الأولى بالذات: حيث يضع الفرق بين الموت خلال الحرب والموت بأمر العدالة. هذا الفرق غير موجود. لأنّ العدالة موجودة في حال أبديّة من الخطر، في حال حرب أبديّة. لقد كان الوضع أيّام فولتير على ما هو عليه اليوم، لكنّه لم يكن واضحاً بادياً للعيان، أو أنّ فولتير كان سميك الذهن بحيث لم يتمكّن من إدراكه. لكنّه اليوم أصبح واضحاً على أيّ حال: لأنّ الجماهير جعلت ضخماً ومكّبراً ما كان لا يراه إلا فكرٌ ثاقب، وحدث هذا عندما قادت الجماهير الوجود الإنساني إلى حال حرب مطلقة وشاملة. عند هذا الحد سأعمّق تفكيري لأصل إلى ما يشبه التناقض، لكنّه نوع من التنبّؤ: إنّ الشكل الوحيد الممكن من أشكال العدل، من أشكال إدارة العدالة والقضاء، يمكنه أن يكون،

وسيكون ممثّلاً بالعقاب العسكريّ الذي يُقتل بموجبه جنديٌ واحد بين كل عشرة جنود. لأنّ الفرد يجب أن يتحمّل الذنب عن كلّ الإنسانيّة. كما أنّ الإنسانية تتحمّل عن الفرد. ولا توجد طريقة أخرى لإدارة العدالة. بل إنّي أذهب إلى أبعد من هذا لأقول إنّه لم توجد البتّة طريقة أخرى حتّى في الماضي. وقد حان الوقت لصياغة الأمر في نظريّة واضحة، في قانون مرسوم. إنّ ملاحقة المذنب أو المذنبين أمرٌ مستحيل، مستحيلٌ من الناحية العمليّة ومن الناحية الفنيّة. وهو لا يشبه البحث عن الإبرة في كومة قش، بل إنّه يشبه البحث عن قشةٍ في كومة القش. وبين الحماقات الشائعة هناك واحدةٌ تقول إنّه من المستحيل تذكّر وجهِ رجلٍ صيني معيّن، لأنّ كلّ الصينيين متشابهون. تمّ بعدها اكتشاف أنّ ثلاثة وجوهٍ صينية على الأقل تبقى غير منسيّة، وأنّها لا تتشابه فيما بينها. أمّا اليوم فانّ ملايين الرجال، بل مئات الملايين، يتشابهون فيما بينهم: ولا أعني من الناحية الجسدية. أو بالأحرى ليس من الناحية الجسدية فقط. لا يوجد أفراد بعد اليوم، ولا توجد مسؤوليات فرديّة. لذلك فانّ مهنتك، يا صديقي العزيز، أصبحت مضحكة، لأنّها تفترض وجود الفرد، لكنّ الفرد غير موجود. إنّها تفترض وجود الله، الله الذي يعمي البعض وينير الآخرين، الله الذي يختفي: لكنّه بقي مختفياً مدّة طويلة حتّى أنّ بوسعنا الافتراض بأنّه مات. إنّها تفترض السلام، لكنّنا نجد الحرب. هذه هي النقطة، هذا هو بيت القصيد: الحرب... الحرب مشتعلة، مستعرة، وعلى الدنس والجريمة أن يعودا إلى أجسام الحشود، كما يعاد الجنودُ في الحروب إلى الفرقة، إلى القطعة، إلى اللواء. عوقبوا في العدد. أدانهم القدر.

ـ لكنّه لا يمكن للعدد أن يكون لا متناهياً. قال روغاس.

ـ كيف؟ ماذا تقول؟

لم يجب روغاس، لأنه كان يفكر بمقاطع: " Argumentum ornithologicum" برهان الطيور[1]: "أُغمضُ عينيّ فأرى أسراباً من الطيور، تدوم الرؤية ثانية واحدة فقط، أو ربّما أقلّ من ذلك. ولا أدري كم رأيت من الطيور. هل كان عددها محدوداً أم لا متناهياً؟ إنّ المشكلة تتضمّن مشكلة وجود الله. فإذا كان الله موجوداً فإنّ العددَ محدودٌ ومعلوم، لأنّ الله يعلم عدد الطيور. أمّا إذا كان الله غير موجود فإنّ العدد لا متناهٍ، لأنّه لا يمكن لأحد أن يعدّها. في هذه الحالة بوسعي أن أقول إنّي رأيت أقلّ من عشرة طيور وأكثر من واحد، لكنّي لم أر تسعة أو ثمانية أو سبعة أو ستة أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو اثنين. بل رأيت عدداً من الطيور بين العشرة والواحد، وهو ليس تسعة ولا ثمانية ولا سبعة ولا ستة ولا خمسة الخ...أي[2] أنّه لا يمكن إدراك هذا العدد التام، مما يعني أنّ الله موجود". عندما تداعت هذه السطور إلى مخيّلة روغاس، وانطبعت فيها، كما هي مطبوعة على هذه الورقة، تحوّل عنها ليعير انتباهه للرئيس ولأقواله: انتبهَ إليه لكن على أساس أنّ ذلك السرب من الطيور الذي حلّق لثانيةٍ أو أقل في عيني بورجس المغمضتين هو أشدّ واقعية، ومحدّد العدد، أكثر من الرجل الذي كان يكلّمه، بل ومن كلّ شيء حوله.

---

(1) من مؤلفات Jorge Luis Borges جورج لويس بورجس 1899ـ1986 كاتب أرجنتيني.

(2) Ese numero entero es incocebibl; ergo, Dios exist.

كان الرئيس يقول، مواصلاً ذلك القسم من الحديث الذي لم يندم روغاس على عدم الإصغاء إليه ـ على أيّة حال إنّ مشكلة العدالة بالنسبة لفولتير وبالنسبة لكل من ورثه، تتركز على ما يبدو على delit locaux أي على الجرائم المحليّة، لكنّ الجماهير اليوم ألغت الجرائم المحليّة عندما انتشرت على القوانين انتشار القطيع العطشان، العطشان إلى الجريمة. إنّه لا يمكن للقاضي أن يسأل اليوم: هل أنّ ما يُدان في راغوسا يدانُ أيضاً في لوريتو[1]. لكنّه من الأفضل أن يقال مالا يدان..لأنّ قليلاً من الأمور فقط تُدان اليوم.

ـ لا يبدو لي ـ قال روغاس. ـ أمّا بالنسبة للجرائم المحليّة: فانّ لوريتو هي اليوم في إيطاليا، أمّا راغوسا فتسمّى اليوم دوبروفينيك وهي في يوغسلافيا. فلا يسعنا القول إنّ ما يدان في إيطاليا يدان أيضا في يوغسلافيا.

ـ جائز، جائز. ـ قالها بلهجة غير المصدّق.

ـ ألا تعتقد؟

ـ إذا كنت تصرّ على معرفة رأيي: فهو لا. لأنّك ارتكبت خطأ إذ اعتبرت محليةً تلك الجرائم التي هي جرائم عامّة وخالدة، أي جرائم تدان في كلّ مكان وزمان. تلك الجرائم التي تجري ضد شرعيّة القوّة والتي لا يمكن إلا للقّوة، وقد أصبحت في طرف الجرائم، أن تمحوها كجرائم وتظهرها في هيئة دخول الإله في العالم. الدخول الوحيد الذي يسمح به العالم للإله...وبالطبع، ليس الإله الذي يختبئ...إنّ تلك الجرائم، والطرق التي حكم بها على

(1) "je n oserais punir a Raguse ce que je punis a Lorette?".

تلك الجرائم وأُنزل العقابُ بموجبها، والنظام والإجراءات المتّبعة، إنّها هي كلّها التي تضفي عناصر أكيدة على كتاب منطلقاتي. في قضايا من هذا النوع نجد أنّهم يفتّشون عن الذنب وهم يحتقرون احتقاراً مطلقاً حجج البراءة التي يتقدّم بها المتّهمون كلّ على حدة. فارتكاب المتّهم للذنب أو عدم ارتكابه له هو أمر لا يهمّ القضاة بأيّ شكل من الأشكال.

ـ لكنّنا نجد أيضاً أنّهم يحاولون في دعاوى مماثلة الحصولَ بكلّ وسيلة على اعتراف المتّهمين بذنوب لم يقترفوها.

ـ والاعتراف... إنّك تقول عكسَ الذي تعنيه تماما...تذكر ذلك المنشور حول محاكمات عام 1630 التي حدثت في ميلانو ضد أشخاص اتّهموا بنشر عدوى الطاعون عن طريق التلويث. يقول المؤلف وهو إيطاليّ كاثوليكيّ، إنّ هناك في تلك القضية ظلماً لابدّ أنّ الذين ارتكبوه، أي القضاة، كانوا قادرين على رؤيته. ولابدّ أنهم رأوه بالفعل. وإلا فهم ليسوا قضاة. لكنّهم لن يكونوا قضاة أيضاً إذا جعلتهم تلك الرؤية يحكمون بالبراءة عوضاً عن الإدانة، آنئذ لم تكن هناك إمكانية لنشر الطاعون بتلك الطريقة وبتلك الوسائل. وأعني أنّ هذه الإمكانية موجودة اليوم.. ولم يكن لدى المتّهمين بتلك التهمة أيّ دافع لارتكاب تلك الجريمة، ولم يكن يوجد أيّ برهان أو ظلّ برهان ضدّهم، بل إنّ القرائن لم تكن منسجمة فيما بينها. لكن كان هناك طاعون: هذه هي النقطة. والشخص الذي كان ينكر وجوده، وهو شخص من بنات أفكار المؤلف، كان يمثّل في واقع الأمر الموقف العلمانيّ الوحيد الممكن آنئذ. لكنّه كان موقفاً مضحكاً بالطبع. وفولتير الذي أتى بعده بقرن من الزمان لم يكن أقلّ

إضحاكاً. ويقال الشيء نفسه اليوم، بعد قرنين من الزمان، عن برتراند راسل وعن سارتر.

ـ والاعتراف...

ـ إذا كنت تعطي الكلمة معناها الدينيّ بدلا من معناها الفنيّ، فانّ الاعتراف بالذنب من قِبَل من لم يقترفه يكمل في حد ذاته ما أسمّيه أنا دارةَ الشرعية. ذلك الدين هو حقيقيّ، وتلك السلطة هي شرعيّة. دين وسلطة يجعلان من الرجل رجلاً مذنباً: في جسده وفي عقله. ومن حال الإجرام أو الذنب يسهُلُ استخراجُ عناصر المخالفةِ والذنب نفسه، فهذا أسهلُ من استخراجها من البراهين الموضوعيّة، غير الموجودة. لا بل إنّ البراهين الموضوعيّة هي التي تتمخّض عَمّا تسمّيه أنت خطأً قضائياً.

ـ بالضبط. إذ إنّ البراهين الموضوعيّة كانت هي التي تمخّضت في حالتنا هذه عن الخطأ: عن إدانة كريس...

ـ هذا لا يهمّني ـ قال الرئيس.

ـ فهمت ـ قال روغاس. فهمت تماما. على أيّ حال انظر، يا صاحب السعادة، إنّ واجبي يحتّم عليّ البحث عن القشة في كومة القش، كما تفضّلت وأسلفت. والمشكلة أنّ تلك القشة هي مسلّحة الآن، إنّها تطلق النار، وقد سبق لها أن قتلت عشرة قضاة تقريباً، ودون أن ترتكب حتى الآن أيّ خطأ كان، دون أن تصاب بأي تشتّت في ذهنها. وفي استطاعتي أن أقرّ الآن بأنّني أخطأت وبأنّ الطلقات تصدر عن مصدرٍ مختلف. مع هذا تبقى هناك مشكلة قائمةٌ وهي ضمانُ حراسةٍ ملائمةً لك، حراسة تستطيع إحباط خطّة كريس أو خطّة الجماعات.. فهل تعتقد أنّك محروس بما فيه الكفاية، وفي أمان كاف؟

ـ ارتسم على وجه الرئيس ظلٌ من الرعب ـ وأنت ما رأيك؟ سأل الرئيسُ بعنجهيةٍ مقرونةٍ بالقلق، وبقلقٍ مقرونٍ بالعنجهية.

ـ أرى أنّك ستكون محميّاً وآمِناً بالمقدار الذي تشعر به أنّك غير محميٍّ وفي وضعٍ غير آمِن.

ـ آه ـ قال الرئيس، وقد أصيب في الصميم.

مِثلَ السائرِ في نومِه وجدَ نفسَهُ داخِلَ المصعد. وعندما فُتِحَ المصراعان بسرعة بعد وصول المصعد إلى فسحةِ مدخلِ البناء، شعر روغاس لبرهةٍ أنّه واقفٌ أمام مِرآة. لكنّ شخصاً آخرَ كان موجوداً في تلك المرآة.

ـ عفواً ـ قال الآخر وهو يدخل إلى المصعد بينما كان روغاس يخرج منه.

ـ تفضّل ـ أجاب روغاس، وقد استيقظ فجأةً وتوتّر، بينما كانت المشاعر والذكريات تتحول إلى أذرع اخطبوط شديدة الحساسيّة .. كانت قامة الرجل بنفس طول قامته، متر وسبعون سنتيمتراً: من هنا تولّد شعورُهُ بأنّه كان أمام مرآة عندما اجتمع به وجهاً لوجه تحت الضوء الباهت في فسحة المدخل. كان أسمر اللون، سمرتُه تناقِضُ بياض شعرِه، كان أيضاً أصلع الصدغين. هل كان أنفُه معقوفاً صقريّ الشكل نوعاً ما؟ ربّما لا. لم يكن نحيفاً تماماً، بل قويّ البنية، ولابدّ أنه سمِنَ بعض الشيء. كما أنّ شعره ابيَّضَ، وأجرى على الأرجح عملية تجميل لأنفه. لكن، أيَّةَ بطاقةِ هوية يحملُ الآن؟ وكيف تمكّن من دخول عمارة يسكنها مسؤولون كبار بينهم الرئيس ريكس؟

ضبط روغاس غرائزه: من دون بذْلِ كثيرٍ من الجهد لابدّ من إخبار سعادتِه أو تعاستِه (كما تشاؤون). لكنّ بريق الرغبةِ بالعودةِ إلى المصعد والذهابِ إلى الرئيس كان مجرد بريقٍ انطفأ عند تذكرِهِ (ولابد أنّها ذكرى قاسية في مثل هذه الظروف) عبارة إنّوشينسو وهو يصوب مسدسه ضد البروفيسور الشوبنهاوري (G.K.Chesterton, Manalive)[1]: "لن أفعل هذا من أجل أولّ القادمين، لكنّنا أصبحنا الآن، أنتم وأنا، أصدقاء بالفعل"، وبالطبع، فإنّه كان يعني الرئيس. الرئيس الذي كان مسدّسُ كريس يصفيّ حسابه معه، وفي تلك اللحظة على الأرجح. عندما استعاد العبارة في ذهنه مكتوبةً بخطٍ بارزٍ مفصّلِ الحروف، محت العبارةُ الخواطرَ التي كانت تجول في رأسه ثم تحوّلت إلى نغمٍ وموسيقى "لن أ فـ علَـ هـ ذا من أج ل أوّل الـ قادمـ ين" وذلك على وقعِ أغنيةٍ كانت شائعةً على مسابحِ البحر، ثمّ: "لكنّ ننا أصـ بحنا الآن، أن تمـ وأنا، أصـ دقا ء بـ الـ فعـل"، على وقعِ موسيقى عريضةٍ جديرةٍ بأوبرا من أوبرات بوتشيني يغنيها مغنٍ بصوت باريتون. عندما استيقظ على نفسه وجدَ أنّه راكبٌ منذ زمن طويل في الباص، وأنّ أضواء المدينة قد أُنيرت، تحيط بها هالات ريح الجنوب الشرقيّ الحارّة الرطبة، وأنّ المحلات بدأت تغلق أبوابها، وأنّه لن يستطيع لهذا أن يتخلّص من الرقيب الذي يتبعه بأن يحوّل مساره، كما كان قد خطط، إلى داخل واحدٍ من المخازن الكبيرة (التابعة لشبكة الاستهلاك الشريف) حيث تساعد الأبواب المتعدّدة

---

(1) كتاب Manalive للكاتب الانكليزي Gilbert Keith Chesterton 1874_1936.

والمصاعد والأدراج المتحرّكة وجموع الناس الكثيفة على تشويش أقدرِ خفيرٍ من مراقبي الشرطة أو مراقبي جهازِ "ماخ" (مركز الاستخبارات الخاص). وكان ذلك بعد أن عرف روغاس أنّ الرقيبين الأوّلين كانا من الشرطة بينما الرقيب الذي يلاحقه الآن هو من الماخ. هاهو قد وقف في الباص، الفارغ تقريبا، في محلّ لا يسمح للشخصِ المراقَب بالقيام بحركةٍ مفاجئة تباغت الخفيرَ المراقِب: عرفه من تفصيل ثيابه الأنيق، من شعره القصير، من جسمه الممتلئ. ذلك أنّ خفراء الماخ يختلفون عن زملائهم الأميركيّين ـ رغم أنّهم يفعلون كلّ ما بوسعهم لكي يقلّدوهم ـ باهتمامهم الزائد بالوجبات اللّذيذة (نفقات عمل)، وبقلّة اهتمامهم بالتمارين الرياضيّة الصحيّة رغم أنّ نظام عملهم ينصّ على أن تتوالى هذه التمارين وتتكرّر أكثر من صلوات أتباع المذهب البندكتي[1].

فتح الخفير جريدة المساء التي كان يحملها، فقرأ روغاس العنوان الرئيسيّ: اغتيال قاضٍ آخر. وفجأة عادت إلى مخيّلته بعض التفاصيل: لقد كان كريس يحمل حقيبةً صغيرة. ومن هنا استخلص روغاس هذه النتيجة: أنّ الرجل لم يدخل العمارة ليقتل الرئيس، بل إنّه دخلها لأنّه يسكن فيها. ولابدّ أنّه كان حينها عائداً من رحلة ما، من المدينة التي استطاع أن يقتل فيها قبل ساعات قاضياً آخر. أمّا الرئيس فبوسعه أن يغتاله متى شاء. كانت حيلةُ سكناه في العمارة نفسها حيلةً مُحكَمة، وهو يؤجّل العملية ويؤجّلها وسيؤجّلها حتّى لا يحبط تلك الحيلة. لقد ضمن كريس لنفسه بهذه الحيلة الأمانَ وسلامةَ التخفي، لكنّه لم يترك الرئيس على قيد الحياة حتّى الآن إلا

(1) I Benedettini.

لكي يحافظ على تسلسل خطّته. لقد ترك الرئيس سجيناً في منطقة يُحظر فيها الصيد (أو في سلّةٍ لِنقْلِ الدجاج)، ليحفظه سليماً معافى حتّى موعد العشاء الأخير.

شعر روغاس بعد هذا الاكتشاف المباغت بالقلق والاضطراب. لقد وجد كريس عشّاً من أكثر الأعشاش راحةً وأماناً، إنّه موجود تحت سقف رئيس المحكمة العليا بالذات. وهنا اختلط هوسه المهني وتشوّقه للمعرفة بنوع من الخوف، الخوف من أن يكون كريس قد عرفه خلال ذلك اللقاء العابر. فإذا شكّ بأنّ المفتّش قد عرف مخبأه، وإذا اعتراه ظنٌّ، بل مجرد وهم، خلال ذلك اللقاء العرضي السريع، فلابدّ أنّه سيختفي من جديد، لابدّ أنّه سيُنحّي خطّةَ اغتيال الرئيس أو أنّه سيؤجّلها إلى فرصةٍ أفضل. ولن تكون هناك فرصة أفضل من هذه الفرصة لاغتياله. لكنّ كريس، حتّى لو كان قد عرف روغاس، وحتّى لو ظنّ أنّ روغاس قد عرفه، فإنّه لن يتخيّل أبداً أنّ مفتش الشرطة الذي تقول الصحف إنّه يطارده في كلّ مكان، ولو دون جدوى، إنّما قد تحول إلى جانبه، وأنّه أصبح صديقاً له. لن يتخيّل كريس أنّ روغاس قد أصبح مثل الهواة الذين يتمتّعون (أو يتألّمون) أمام شاشة تلفزيون تبث مباراة كرة قدم، وهم يشجّعون ويبتهلون بل ويتنبّؤون بالضربة الفاصلة، بالهجوم الصاعق على مرمى العدو، برفسة الانتصار. مثلهم كان روغاس ينسج في خياله خطوات كريس المقبلة، الخطوات التي يجب أن يخطوها. لكنّ روغاس كان يريد وفي الوقت نفسه أن يتأكّد من أنّه لم يخطئ، وأنّ ذاك الرجل هو كريس بالفعل، فهل يعود أدراجه ليسأل عن الخبرِ البوّابين والخفراء؟ لكنّ كريس سيعرف عندها بتحقيقاته هذه وسيشعر بالخطر وسيهرب، هذا إذا كان كريس يقطن هناك بالفعل.

نزل في موقف ساحة كْلِيو بكلّ بطء وخمول. اشترى جريدة. كان خبرُ مقتلِ القاضي قصيراً، لكنّه يتصدّر مكاناً بارزاً فيها. ثمّ تمشّى تحت الأقواس وهو يتصفّح الجريدة. كان خفير الماخ قد اختفى، لكنّ روغاس يعرف أنّه مختفٍ في مكانٍ ما مُظلمٍ من الساحة.

دخل المقهى وطلب حليباً بارداً وقهوةً ساخنة. وضع السكّر في هذا وتلك وشربهما على التوالي، بسرعة. فألغى الإحساسان المتناقضان، البارد والحار، اللذان شعر بهما في الوقت نفسه تقريباً، ألغى واحدهما الآخر: وبهذا اكتسب جسمه، لهنيهات من الزمن، نوعاً من اللامبالاة إزاء خمارِ الرياح الحارّة الفظيعة الذي كان يغطّي المدينة. حينها راودته الفكرةُ الملائمة. كان المقهى شبه مقفر، والهاتف موجود فيه في محلّ مناسب لا يمكن لأيّ فضوليّ أن يقترب منه دون أن ينكشف. أدار روغاس الرقم (السريّ) الخاص بالرئيس ريكس. فأجاب الخادم، كما توقّع. قال ـ أنا المفتّش روغاس، أكلّمك لأنّي أريد بعض المعلومات الروتينيّة.. بلى.. منك أنت. فلا يمكن لي حتّى أن أحلم بإزعاج صاحب السعادة.. نعم: إذاً أودّ معرفة أسماء الذين يسكنون في العمارة، وإذا أمكن بعض المعلومات حول أعمالهم، حول مهنهم..السفير الإيطاليّ، ثمّ الرئيس العام للإذاعة والتلفزيون، دوق لايغا، السيّد ريبيديو كارلوس ريبيديو..هل هو إسبانيّ؟ آه برتغاليّ. وماذا يعمل السيّد ريبيديو؟ في السفارة البرتغاليّة؟ لا، لا عليك إن توقّفنا لحظة حول السيّد ريبيديو هذا، كيف هو؟ من الناحية الجسدية أعني؟ آه إنّه رجل جميل الطلعة.. وجه برتغاليّ، تعني أنّه أسمر، وشعر أبيض، حسناً، حسناً، ثمّ...وما لبث أن غيَّر الحديث حتّى لا يثير شكوك الخادمِ الذي كان شرطيّاً، حول اهتمامه الخاص بالسيّد ريبيديو.

وهكذا حصل على اسم ريبيديو. تاجر برتغاليّ. وجه برتغاليّ، جواز سفر برتغاليّ. وغنيٌّ مثل برتغاليٍّ غنيّ.

كان اليوم التالي يوم جمعة. رسم روغاس برنامج يومه وهو تحت الدوش حيث أطال المكوث. لكنّه لن يتمكّن من تنفيذ البرنامج بحذافيره إلا إذا استطاع التخلّص من الخفراء الذين يراقبونه. وإلا فإنّ كلّ من سيقابله سيقع بكلّ تأكيد وبصورة آليّة، تحت المراقبة، ومن يدري لِكَم من الوقت، وبأيّة نتائج.

جلس في المكتب يكتب تقريره حول زيارته للرئيس ريكس، واستغرقت الكتابة ساعتين. ضمَّنَ التقريرَ سخريةً لا يمكن أن يلحظها أيّ من الأشخاص الذين سيقرؤون التقرير، ومن كلّ الرتب التي سيمرّ عليها، ولن يدركها بحّاثة الأرشيف في المستقبل، ولا المؤرّخون، لأنّ هذا البلد لا يفهم السخرية، ومع هذا فقد تسلّى روغاس باستعمالها. ثمّ أنهى تقريره بهذه العبارة: عندما ترك المُوقِّعُ أدناه بيتَ رئيس المحكمة العليا، شعر بشعورٍ لاشكّ في صحّته بأنّ خبراء في المراقبة كانوا يتابعون خطواته وكانوا مناسبين للقيام بهذه الوظيفة، حتّى إنّه ليقال إنّهم قد تدرّبوا على هذا العمل في هيئةٍ حكومية أو شركةٍ خاصة. فإذا كانت هناك هيئات عليا قد اهتمّت بتأمين الحماية بهذه الطريقة للموقِّعِ أدناه، فلا يسع الموقعُ أدناه إلا أن يوجّه خالص شكره لها، كما أنّه يسمح لنفسه بأن يلفت نظرها إلى أنّ هذه الحراسة شديدة الكلفة بسبب تعاقب العديد من الخفراء القائمين عليها، ولهذا فسيكون من الأفضل استعمالها لحراسة القضاة وحمايتهم. أمّا إذا كانت الهيئات العليا لم تأمر بهذه الحماية وإذا كانت تجهل بوجودها، فانّ الموقِّعَ أدناه يرى أنّه من الأفضل، لا بل من الضروريّ، أن يخصّص خفراء من الشرطة لمراقبة المراقبين.

ذهب روغاس إلى مكتب رئيس القسم السياسي في الساعة التي يقدّم فيها عادةً معاونو الرئيس تقاريرهم اليومية، لكنّهم أخبروه أنّه لا حاجة للتقارير يومها لأنّ الرئيس مشغول بالتحقيق مع فتاةٍ من أنشط عناصر جماعةٍ تعبث في مدينةٍ قُتل فيها قبل يومٍ واحد أحدُ القضاة. كانوا قد نقلوها بالطائرة مع ثلاثة من رفاقها إلى العاصمة: وأراد رئيس القسم أن يبدأ بالتحقيق معها بالذات. لأنّها امرأة، قال روغاس في سرّه. وهل سيضربها بالورود؟

أطلَّ على غرفة الانتظار: فوجد الشباب الثلاثة الذين ينتظرون التحقيق، فضلاً عن عشرة من رجال الشرطة يراقبونهم. كانوا ملتحين، ثيابهم رثّة، نظراتهم وابتساماتهم تنمّ عن الازدراء، وكانوا لا ينطقون بكلمة، ولا ينظر أحد منهم إلى الآخر. يا للمساكين، فكّر: إنّهم ليسوا مساكين لأنّهم سيقابلون أبله، ولا لأنّهم تعرضوا لهذه المصيبة الصغيرة (فبعد ساعات سيطلق سراحهم، وسيحتفل بهم رفاقهم ليحيّوا الشرف الذي اكتسبوه بعد نهار من الصعوبات والعذاب)، بل لأنّه أشفق عليهم، كما يشفق على الشباب عامةً كلّما رآهم سجناءَ في أقفاصِ الازدراءِ وفي سجونِ غضبهم، هذا رغم أنّ هناك أموراً كثيرةً تدعو إلى الازدراء وإلى الغضب، لكنّ هناك أموراً كثيرةً تدعو أيضاً إلى الضحك. نزل. ثمّ خرج من الساحة. وكان الوقتُ في تلك الساعة التي تُمسِك فيها حركةُ المرورِ بخناقِ المدينة. أما وأنّه من المستحيل العثور على تكسي في تلك الساعة، فقد قرّر السير على قدميه.

مشى لربع ساعة من الزمن، على عجل، تحت أشعّة الشمس الحادّة. وأخيراً دخلَ شارع فرازر الهادئ، كانت تحفّ به الظلال،

وكان طويلاً، مستقيماً، مُنع فيه السير في كلا الاتجاهين. وكان يسكن فيه أغنياء لم يغتنوا منذ وقت قريب، بل عندما كان الغنى قادراً على أن يصبح لياقةً أيضاً. دخل في العمارة رقم 30 التي سكنتها ثلاثة أجيال من عائلة باتوس، وهم تجّار سلاح وأصحاب جريدة "النجمة" وأصدقاء رئيس الشرطة ("سيقول لي غداً إنّه مدعوٌّ هذا المساء للعشاء عند عائلة باتوس"). أمّا روغاس فكان ينعم بصداقة البوّاب: ذلك أنّه ساعده مرّةً على إثبات براءته، وكانت الشرطة تريد اعتقاله بعد اتّهامه بالسرقة التي حدثت يومها في دار باتوس. شرح روغاس للبوّاب، بسرعة ودون أي مقدّمات رسمية، ماذا عليه أن يفعل: عليه أن يتصنّع التحدّث بالهاتف الداخلي مع أصحاب البيت ـ علماً أنّهم كانوا في المصيف ـ وكأنّما ليعلمهم عن زيارةٍ ما، ثمّ عليه أن يرافقَه نحو المصعد، ثمّ أن ينتظر شخصاً سيقف في الخارج (ولم يكن قد وصل بعد، لكنّه سيظهر بعد لحظة) وسيسأله عنه وعن البيت الذي صعد إليه: عليه أن يخبره عندها أنّه ذهب إلى السيد باتوس الكبير. عندما أطلَّ الرقيب كان البوّاب يتكلّم على الهاتف الداخلي: وكان يتذكر المصيبةَ التي خلّصه روغاس منها. أغلق الهاتف وذهب ليرافق روغاس نحو المصعد. صعد روغاس إلى الدور الأخير ثم هبط مستخدماً الدرج، وجلس بشكلٍ يمكّنه من الاستماع إلى الحديث بين خفير المأخ والبوّاب دون أن يراه أيّ منهما.

ـ إلى أين ذهب الشخصُ الذي دخل الآن؟ سأل الخفير.

ـ لماذا تريد أن تعرف ذلك؟ أجابه البوّاب كما هو متوقع.

ـ فضول ـ قال الخفير بلهجةِ تهديدٍ باردة.

ـ ذهب إلى بيت السيد باتوس.

ـ أيّ باتوس؟

ـ باتوس باتوس ـ قال البوّاب بنوع من الزهوّ.

ـ تاجر الأسلحة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ تاجر الأسلحة.

ـ حسنا.. لكن لا تخبره أنّي سألت عنه عندما تراه ينزل...اتّفقنا؟

ـ اتّفقنا.

عندما ذهب، ذهب روغاس أيضاً بعد أن اجتاز القبو حيث كان يسكن البوّاب، وبهذا خرج من شارع بيرن الموازي لشارع فرازر وغير المتّصل به. يجب على الخفير الآن أن يسير كيلومتراً ليصل إلى الشارع الثاني. ولن يشكّ في هذه اللحظة بأنّ روغاس قد تمكّن من التخلّص منه. بل لابدّ أنّه ما زال ينعم بالخبر الشيّق الذي سمعه لتوّه والذي لابدّ أنّه سيبلّغه في الحال لرؤسائه: لا أحد يذهب لزيارة أشخاص مُهمِّين إلا لغايةٍ مُهِمّة.

كلّم روغاس كوسان بالهاتف من أحد المقاهي، واتفقا على موعدٍ في مطعمٍ خارج أبواب المدينة، ثم كلّمَ موقفاً لسيارات الأجرة وطلب سيارةً تقلّه إلى المكان.

بعد نصف ساعة كان يجلس تحت عريشة عنب تعلو مائدةَ المطعم، وكان يحتسي نبيذاً أبيض بارداً. تأخرّ كوسان، فجلس روغاس يُنظّم فرضيّاته وتوقّعاته ومختلف شؤونه. بين أوراق العنب وبرودة النبيذ كان الجوّ منعشاً، وكان هو صافي الذهن، . لكنّ نوعاً من القلق، من عدم الثقة، بل ومن الخوف أيضاً، كان يعتمل في أعماقه.

حكى كل شيء لكوسان.

كان كوسان هذا كاتباً ملتزماً: لهذا فإنّه سرعان ما شعر بانهيارٍ عميق لأنّه أُقحِم في أهميةِ تلك الأسرار، وفيما حولها من مخاطر، بيد أنّه كان أيضاً إنساناً شريفاً، وصديقاً وفيّاً: لذلك فقد حاول أن يهدم ذلك القصر المصنوع من انطباعات وخلاصات وفرضيّات، ثمّ أدرك بسرعة أنّه أصبح داخل هذا القصر جنباً إلى جنب مع روغاس: كأنّهما في متاهة. كان لابدّ لهما من الإمساك بطرفِ خيطٍ ليتمكّنا من الخروج. وكان هناك خيطٌ في متناول اليد: إنّه خيط الخروج من المتاهة بتناسيها. وحدث عدّة مرات أنّهما لامسا هذا الخيط في أفكارهما، حتّى كادا أن يمسكا به. لم لا؟ وروعة المكان، الطعام والنبيذ، وتلك الذكريات الغالية حين كان الآباء والأمهات يردّدون على مسامع أولادهم قائلين: "مالك ولهذه المصائب؟"، عبارة حوَّلَتها ألفا سنةٍ مرّت على البلاد إلى عبارةٍ رسوليّةٍ نبوئيّة، كان هناك أيضاً ذكرياتُ الصبا الطلق التي كانت تتراكم في رأسيهما كلّما التقيا، والهيامُ بأمورٍ لابدّ من فهمها، بعالِمٍ لابدّ من رؤيته، بكتبٍ لابدّ من قراءتها قبل الوصول إلى سنّ النضج، والصفاء الذي كانا يشعران أنّهما سيدركانه (إذا سمح بذلك مرض السرطان ونوبات القلب): كانت كلّ هذه العوامل تتعاون على تحويل ذهن كلّ منهما نحو خيط الخلاص المذكور، نحو خيط النسيان. لكنّ خجله سيكون أكبر إذا ما هو صرَّح بذلك. من ناحية أخرى كان كلّ منهما يتوقّع خلف إرادته ووعيه توقّعاً شريراً: أن ينهار الآخر، ويبوح.

كاد كوسان أن ينهار أوّلاً، لكنّهما توصّلا سويّةً إلى الحلّ الأكثر

بداهة، فقدَّم نفسه للمهمّة التي لابدّ من القيام بها. تكلّم بلهجة تدلُّ على معانٍ تكاد أن تكون غامضة وتنمُّ عن الاستسلام والبطولة معاً. لكنّ تلك المعاني كانت تزداد وضوحاً كلّما زاد إصراره، وكلّما قدَّمَ الأسبابَ التي تجعله صالحاً لتلك المهمة.

ـ إنّي أعرف آمار كلّ المعرفة، وأنا واثق من احترامه لي وثقته بي...كما أنّه بوسعي أن أذهب لزيارته دون أن أثير شكوكَ أيٍّ كان... سأكون مجرّد كاتب يذهب لزيارة الأمين العام للحزب الثوريّ الدوليّ: لاشيء أقلّ إثارةً لانتباهِ الشرطة أو المخ. إذ ماذا يمكن لكاتبٍ مثلي أن يريد من آمار؟ جائزةً أدبية؟ موالاةَ صحافة الحزب؟ وماذا يمكن لآمار أيضاً أن يريد من كاتبٍ مثلي؟ التوقيع على بيان احتجاج؟ الشهادة حول حجز بعض الحريات؟ أو خنق بعض الحقوق؟ كما أنّه لن ينجم عن هذا أيّ خطر بالنسبة لي. أمّا بالنسبة لك...

لكنّ روغاس رفض، وأصرّ على الرفض ـ أنا الذي سيذهب لعند آمار: غداً. وسأستعمل أفضل الطرق وأكثرها أمناً. إنّها مهنتي: عندما يكون الصياد في مكان الأرنب فإنّه سيتصرّف بطريقة أفضل من طريقة تصرّف الأرنب..لا تقلق.. سأزورك غداً بعد أن أترك آمار: هذا إذا تمكّنت من التخلّص من ملاكي الحارس.

ـ أمّا إذا وجدت أنّك لست في أمانٍ تامّ قبل ذهابك لزيارة آمار، أو أنّ أحداً يلاحقك، فكلّمني بالهاتف، عندها سأذهب أنا عوضاً عنك. وهكذا عرض كوسان نفسه مرّة أخرى.

ـ سأتخلّص منهم. وقد أفلحت اليوم كما ترى ـ قالها وهو يشير بيده إلى الزبائن الهادئين كلهم الذين ينعمون مثلهما بالنبيذ وبالهواء

العليل. لكنّه أخطأ. "يمكن للإنسان أن يكون أخبثَ من إنسانٍ آخر، لكنّه لا يمكن له أن يكون أخبث من كلّ الآخرين" (بروبير؟)[1].

في اليوم التالي، وكان يوم سبت، لم يظهر روغاس. كما أنّه لم يظهر صباح الأحد: أي في تلك الساعات التي كان بوسعه أن يظهر فيها.

في ظهر يوم الأحد، بينما كان كوسان يتناول طعام الفطور، وكان قد شغّل جهاز التلفزيون في الغرفة المجاورة ليسمع شيئاً من أحداث النهار دون أن يضطرّ لرؤية صورها المحزنة الضبابيّة، عرف أنّ روغاس قد مات. فقد أعلن المذيع بصوت يتخلّله الحزن والانفعال المخصّصان للكلام عن الزلازل وكوارث الطيران: في الساعة الحادية عشرة من هذا الصباح اكتشفت جماعة من الزوّار الأجانب في إحدى صالات المعرض الوطني جثّة رجل يبدو أنّ عمره حوالي الأربعين سنة. وقد وصلت الشرطة في الحال واكتشفت أنّ الميت هو المفتّش آميركو روغاس، واحدٌ من أشهر وأقدرِ محقّقي الشرطة. وقد تأكّدت الشرطة في الحال أنّ الموت تمّ بفعل ثلاثة عيارات ناريّة، وكان المفتّش يحمل في يده اليمنى سلاحه المهني الخاص. اكتشف رجال الشرطة بعدها أمراً أخطرَ من ذلك بكثير: فقد عُثِر في الصالة المجاورة على جثّة الأمين العام للحزب الثوريّ الدولي السيد آمار، وكان قد قتل هو أيضا بعيارات ناريّة أطلقت على الأرجح من المسدّس نفسه". غاب بعدها المذيع بوجهه الذي كانت تظهر عليه تعابير شبيهة بتعابير شخصٍ مصابٍ بألمٍ في أسنانه: كان كوسان قد عاد إلى غرفة التلفزيون. رأى مدخلَ المعرض الوطني الفخم، ثمّ الدرج والصالة رقم 12، ثمّ كتلة قاتمة

---

(1) Jean de La Bruyère مفكر فرنسي 1654-1696.

مكوّمة تحت لوحةٍ لرجلٍ واقفٍ على قدميه. "وُجِدت جثةُ السيد آمار تحت صورة لآزارو كارديناس من رسم الفنان فلاسكيز". ثمّ الصالة رقم 11، كتلةٌ قاتمةٌ أخرى مكوّمة تحت لوحةٍ للعذراء وقدّيسين. أمّا جثّة مفتّش الشرطة فقد وجدت تحت لوحة عذراء السلاسل من رسمِ فنّانٍ مجهولٍ من فلورنسا، عاش في القرن الخامس عشر... واليكم الآن ترتيبَ الأحداث كما تبيّن من خلال الشهادات التي أدلى بها الحضور ومن خلال فرضيّات المحقّقين". وهنا قفز إلى الشاشة وجهٌ يبدو عليه الفزع. "كنت تعمل هذا الصباح في بوابّة المعرض: هل رأيت الشخصين المقتولين عندما دخلا إلى المعرض؟"، "رأيتهما يدخلان، وصل أولاً السيّد الذي قالوا إنّه مفتش شرطة. بعد حوالي عشر دقائق وصل الآخر، السيّد آمار". لم يجيئا سويةً إذاً؟"، "لا بكلّ، تأكيد". "وبعدها؟"، "بعدها وصل شابٌ أشقر طويل، له لحيةٌ كثّة". "ماهو نوع لحيته؟"، "أظنّ أنّها على طريقة لحى الفرنسيسكان"، "كيف كانت ملابسه؟"، "بنطلون أسود، ضيّق جداً، قميص مطرّز، وكان يحمل في يده حقيبة سوداء". "بعدَ كَم من الوقت على وصول السيد آمار وصل هذا الشاب الملتحي؟"، "بعد دقيقتين أو ثلاث". "وهل وصل بعده آخرون؟"، "لا، ذلك حتى حوالي الساعة الحادية عشرة، عندها جاء قطيع الأميركيين...أطلب العفو، فنحن نسمّي المجموعة السياحيّة قطيعاً، نمزح ونسميها قطيعاً". "وهل رأيت الشاب وهو يخرج؟"، "نعم، قبل دخول الجماعة ببضع دقائق". "هل كان مضطرباً، هل كان يجري؟"، "لا، على الإطلاق، بل كان هادئاً جداً". "أخبرني، هل بوسعك أن تتعرّف عليه إذا رأيته؟"، "لابدّ أنّه قد حلق الآن ذقنه، وكيف لي أن أعرفه دون ذقن؟". اختفى الوجه

من على الشاشة وهو يبتسم ارتياحاً. "أمّا الآن فإليكم حارسَ الدور الأوّل للمعرض". وجهٌ قلق، هزّة عصبية بين العين والفم. "ماذا رأيت؟" "لاشيء، مرَّ ثلاثتهم أمامي، الواحد تلو الآخر، بالترتيب نفسه، والأزمان نفسها التي تحدث عنها زميلي". "وأين كنت آنئذ؟"، في الصالة الأولى". "ولم تغادرها أبداً؟" "أبداً". "ولم تسمع شيئاً". "أبداً" "هل رأيت الشابّ وهو يخرج؟"، "رأيته". ثمّ غابت الصورة تدريجياً. "نستمع الآن إلى محقّق الشرطة الذي يرأس التحقيق. إنّه الدكتور بلوم، رئيس القسم السياسي... سعادة المفتّش، لماذا قرّر القسم السياسي استلام مهام التحقيق؟". تكشّف وجه المفتّش، الذي كدّره عمله البيروقراطيّ وأمراض الهضم، عن ابتسامةٍ تنمّ عن الشفقة. "كان السيد آمار رجلاً سياسيّاً، ويُقتل الرجلُ السياسيّ عادةً لأسبابٍ سياسيّة". "هل كوّنتم فكرة محدّدة عن الأسباب السياسيّة التي قتل من أجلها؟"، "نعم". "ولا يمكنك بالطبع أن تفصح عنها"، "بالطبع". "هل لك على الأقلّ أن تخبرنا بكيفيّة توالي الأحداث؟"، "حسناً، لا بدّ من القول أوّلاً إنّ كلاً من السيّد آمار وزميلي روغاس، ولا أعتقد أنّهما على معرفةٍ الواحدَ بالآخر، كانت لديهما هوايةُ زيارةِ المعارضِ الفنيّة خلال أوقات الفراغ. كان السيّد آمار مثلاً معروفاً بثقافته ورهافة حسّه، كما أننا كنّا نحن جميعاً نعتبرُ الزميلَ روغاس رجلاً على مستوى رفيعٍ من الثقافة". لفظ العبارة الأخيرة وهو يحرك تعابير وجهه وكأنّما ليقول إنّ هذه الثقافة الرفيعة هي السبب الذي أطلق في نهاية الأمر ذلك العيار الناري. "وصدف أنّ اجتمع الاثنان اليوم معاً في المعرض الوطني عندما توجّها لزيارته، بل للعودة إلى زيارته: لأنّ كليهما كانا يؤثران، على ما علمتُ من أصدقائهما، العودة للتمعّن في

بعض اللوحات المفضّلة. كان السيّد آمار مثلاً يعتقد أنّ لوحة لآزارو كارديناس من رسم فلاسكيز، التي قتل بقربها، تعتبر واحدةً من أمّهات الرسم العالميّ. كان كلّ منهما في المعرض إذاً. بادئ ذي بدء وصل السيد آمار. وكان المعرض مقفراً خالياً من الزوّار، كما هي حاله في ساعات الصباح الأولى. أمّا الزائر الثالث فمن الواضح أنّه لم يكن من هواة الفن: بل كان يلاحق السيد آمار (وقد دخل بعده بدقيقتين أو ثلاث دقائق)، وإذا افترضنا أنّه لم يكن قد وضع خطّة محددة، فلابدّ أنّه دخل وراءه وهو ينوي نيّة تنطوي على الإجرام. لكنّه رأى أنّ المعرض مقفر وأنّ السيد آمار وحيد على غير عادته: فأيّ فرصةٍ أفضلُ من هذه الفرصة؟ لكنّه لم يحسب حسابَ أنّ شخصاً آخر قد دخل قبلهما. هفوةٌ بسيطة، ما أسهلَ إيجاد حلّ لها، ووجد القاتلُ الحلَّ بتنفيذ جريمةِ قتلٍ ثانية...أعتقد أنّ روغاس كان موجودا في الصالة رقم 14 أو 15 عندما سمع الطلقة تصدر عن الصالة رقم 12... وكان مسدسُ القاتلِ مجهّزاً على الأرجح بكاتم للصوت، لهذا فانّ حارس الصالة المجاورة لم يسمع شيئاً. لكنّ روغاس كان أقرب منه إلى الصالة كما أنّ أذنه ممرّنةٌ على سماعِ مثل تلك الأصوات، ففهم في الحال أنّ عياراً ناريّاً قد أطلق. جرى نحو الصالة رقم 12 فرأى جثّةَ السيّد آمار. سحبَ مسدسه في الحال. هنا تبرز مشكلة صغيرة: يبرز السؤال، هل لحق بالقاتل في الصالة المجاورة فاستدار هذا ومسدّسه مازال في يده ليطلق ثلاثة عيارات أخرى، أو أنّه شعر بقدوم شخص ما من الصالات المجاورة فاحتمى بالجدار إلى جانب الباب الذي سيمرّ منه روغاس ليطلق عليه النار من وراء ظهره؟ أنا شخصياً أعتقد بصحّة الفرضية الثانية: لكنّ القاضي الشرعيّ هو الذي سيبتّ

في الأمر". غاب المفتّش من على الشاشة وظهر المذيع مرّة أخرى وقد تحولّ وجهه من وجه حزين ليصبح كأنّه وجه لتمثال منحوت. "قبل أن أعطي الكلمة إلى نائب الأمين العام للحزب الثوري الدوليّ، يجب عليّ أن أعطيكم خبراً رهيباً آخر: لقد اغتيل صاحب السعادة ريكس، رئيس المحكمة العليا، وهو في منزله. ولا أحد يعرف حتى الآن كيف تمكّن القاتل من الدخول إلى العمارة رغم الحراسة الشديدة التي تحيط بها. يبدو أنّ القاتل استغلّ أيضاً فرصة غياب الخادم الوفيّ الذي يترك منزل الرئيس عادة صباح كلّ يوم أحد. وسنوافيكم بتفاصيل أخرى عن الحادث في نشرة الساعة الرابعة عشرة".

كان كوسان يعرف مَن الذي قتل الرئيس ريكس وكيف قتله. كان يعرف ان آمار وروغاس لم يلتقيا بطريق الصدفة في المعرض الوطني. وكان يعرف، أو أنّه كان يعتقد أنّه يعرف، لأنّ مايعرفه يساعده على أن يتخيّل بسهوله ما لا يعرفه، أنّ اللقاء بين الشخصين، آمار وروغاس (بعد كلّ الذي قاله روغاس لآمار، وما سيحتّمه هذا من أفعال سيقوم بها آمار بعد أن أسرَّ له روغاس ما أسرَّ) قد كُتب له أن ينتهي بموتهما كليهما، وفق خطة مدروسة. لم يكن من المستبعد ولا من المستحيل بطبيعة الأمر أن يكون ذلك الشاب الطويل، الأشقر، الملتحي بلحية فرانسيسكانيّة، ذو القميص المطرّز منتمياً إلى تلك الجهات التي سيشار إليها بعد قليل في الصحف والتلفزيون، ليصار بعدها إلى توجيه التهمة لها بيقين ما بعده يقين، وأنّه كان مُصمِّماً على ملاحقة آمار ليقتله في أفضل فرصة تسنح له. رغم هذا كان من الأسهل على كوسان أن يتخيّل، بما لا يقبل الشك، أنّ المُلاحَق إنّما كان روغاس بالذات، وأنّ

الذي يلاحقه كان واحداً من خفراء الماخ التحى وتنكّر عن سابقِ قصدٍ وتعمّد، ولابدّ أنّ كثيرين من الخفراء كانوا مدسوسين بين مختلف الجماعات، وفي أماكن العبادة الخاصة بالمخدّرات من هيروئين وغيره من عقارات الهلوسة "ل س د". بل لا بدّ أنّ أكثر من خفيرٍ كان يلاحق روغاس. بحيث إنّ هذا لم يكن ليدرك أنّ خفيراً آخر كان يتعقّب خطاه عندما يتخلّص من الخفير الأول (وما كان هو ليذهب إلى موعده إن لم يكن واثقاً كلّ الثقة أنّه تخلص من المراقبة). هنا شعر كوسان، رغم حرارة ذلك اليوم وتلك الساعة، بعرقِ الخوفِ المثلج يسري في عروقه. فقد فكّر في قرارة نفسه: وإذا حدث الأمر نفسه البارحة، خلال لقائه مع روغاس في المطعم خارج بوابة المدينة؟ كان روغاس آنئذ يشعر بالثقة لأنّه استطاع التخلّص في بيت باتوس من الخفير الذي كان يلاحقه، لكن ربّما كان هناك خفيرٌ آخر، أو ربما أكثر من واحد، في سيّارة على أهبة التحرّك في أيّ اتجاه. وما كان لخطةِ الدخولِ من بابٍ والخروجِ من بابٍ آخر يطلّ على شارع ثانٍ لِتَفوت على أناسٍ مثل جماعة الماخ، قادرةٍ على إدراك خفايا كلّ الأمور والتحايل عليها. إنّ خطة مثل خطّة البابين تلك قد تنطلي على الشرطة، ولكن ليس على "هؤلاء". إذ بدأ كوسان يشعر أنّهم كالشياطين موجودون في كلّ مكان ويملكون كلّ شيء، كأنّهم أشباحٌ لا ترتدع، تزحف وتطير وتبذر العنف والموت في أمور حياته. يا لروغاس ذاك: في أيّ مصيبةٍ أقحمه. لكنّه سرعان ما ضغط الحقدَ الذي اعتراه، ثمّ مسخه إلى مجرّدِ تفصيلٍ صغير: كان روغاس يحسن القيام بمهمّته، لكنّه كان يحتقر نوعاً ما الوسائل العلميّة الحديثة التي تقدّمها التقنية اليوم لخدمة مهنته. لقد رفض استخدامها، لكنّه نسي أنّ الآخرين قادرون

على استخدامها. ولابدّ أنّ ما قضى عليه وما سيقضي على كوسان، إنّما هو مجرّد جهاز صغير يبثّ ويستقبل، من تلك الأجهزة التي توجد اليوم حتّى في فروع الألعاب في المخازن الكبيرة. لكنّه قال لنفسه: لا تقع فريسةً للفزع. يالروغاس المسكين، يالآمار المسكين. يالبلدنا المسكين هذا. تمتم وهو يراقب من خلف الزجاج الطريق المشمس والمقفر وكأنّه حلقُ وادٍ: كمين وسكون، طلقة صمّاء يطلقها القنّاص فيردي المغامرَ المستطلع قتيلاً. انسحب من وراء النافذة، فلربّما كان القنّاص وراء نافذة في الجهة المقابلة.

كان وحيداً في البيت. زوجته وأولاده على شاطئ البحر. كان دائماً وحيداً خلال لحظات حياته الصعبة. أيّ لحظات صعبة؟ وبحَث عن لحظات شبيهة بهذه التي يجتازها الآن. لكنّ هذه ليست لحظة صعبة. إنّها النهاية. أعادت فكرةُ النهاية والموت الذي ينتظره في الوادي بعض الطمأنينة إلى نفسه، بل إنّه استلقى على الأرجح في أحضان الوسن. رأى في ما يشبه الشفافيّة: الأحداث والأشخاص والأمور مكومةً مطهّرة، معقّمة، كأنّها في حَجرٍ صحي.

بعد أن أظلم الوادي عاد إليه الخوف من جديد. لابدّ أن أكتب كلّ شيء، ثمّ كتب لأكثر من ساعتين. قرأ ما كتبه. حسناً ربّما كانت صفحاتي هذه هي الوحيدة التي ستبقى: لأنّها وثيقة. طوى الوثيقة مرّتين. وأين أضعها؟ "دون كيشوت"، "الحرب والسلام"، "البحث عن الزمن الضائع"؟ أيّ كتاب أُنقذ؟ أيّ كتاب سيُنقذ الوثيقة؟

اختار طبعاً كتابَ "دون كيشوت". ثمّ كتب رسالة: "في مكتبي. على الرف د من الطبقة الثالثة، بين صفحات "دون كيشوت"، هناك وثيقةٌ تتعلق بموت آمار وروغاس وموتي"، وضعها في ظرف وأغلق

الظرف. أيّ عنوان يكتب على الظرف؟ زوجته، نائب الأمين العام للحزب الثوري، رئيس اتّحاد الكتّاب؟ فكّر أيضاً بخوريٍّ كنيسة سان داميانو الذي كان زميله في المدرسة الثانويّة. ثمّ قرّر أن يكتب على الظرف عنوان بيته بالذات. عليه أن يخرج لكي يودع الرسالة في صندوق البريد.

ترك أنوار المكتب مضاءة ولم يشعل غيرها على السلّم. هبط في الظلام، وخرج. رأى بعض المارّة، ورأى عاشقيْن متعانقيْن: في زاوية الشارع، تماماً قرب صندوق البريد. مرَّ كوسان على الرصيف الآخر، وعندما وصل إلى مستوى العاشقيْن توقّف ونظر إليهما: بدا وكأنّه بصّاص. لكنّه كان يحملق فيهما ليستطيع أن يميّز في ذلك التشابك الغراميّ الحقيقةَ من التصنّع. وتأكّد أنه لا يمكن للتصنّع أن يبلغ هذا الحدّ. فعبر الطريق ووضع الرسالة في صندوق البريد. بين كتل شعرها وذقنه، لمعت عينٌ، عينُه أو عينها، وفي اللمعان ظلّ السخرية: إذا كنت تريد أن تنظر فلا حاجة بك إلى حجّة وضع الرسالة في صندوق البريد. فكّر كوسان غاضباً: إنّ المتحرّرين يعدّون العدّة للثورة لكنّ المحافظين هم الذين يصنعونها، وإنّهما، هذان المتعانقان، وكلّ الجيل الذي ينتسبان إليه، لن يصنعوا ثورةً أبداً، ربّما فعل ذلك أولادهم: لكنّهم سيكونون محافظين.

عاد إلى البيت وهو مسترسل في هذه الأفكار. لم يعد يشعر بالخوف، رغم هذا لم يتمكّن من النوم. في اليوم التالي كلّم بالهاتف صديقاً له، ناقداً أدبياً وأحد منظّري الالتزام (التزام بلديّ، بيتيّ، مثل بعض أنواع البسكويت التي تتناقل العائلات طريقة صنعها، فتبدو رائعةً لا مثيل لها، خاصّة عندما يضاف إليها شيء

من الملح أو الفانيليا أو غيرهما)، هذا في الماضي، أمّا الآن فهو من كبار زعماء الحزب الثوري المعنيّين بالشؤون الثقافية، سأله أن يحصل له على موعدٍ مع نائب الأمين العام. ـ سآتي حتما ـ (مازال يشعر أنّه كاتب ملتزم) ـ لكن لا تنسَ أن تكلّمه بأسرع ما يمكن: لديّ أمور عاجلة وسريّة أريد أن أكلّمه بها. بقي في بيته طيلة النهار: الاثنين. يوم الثلاثاء جنازتان. جنازة روغاس في كنيسة سان ماركو، كلّها شرطة وإعلام (مسكين روغاس)، جنازة آمار في صالة المقر الرئيسي للحزب. وكانت هناك جنازة ثالثة في القصر العدليّ: جنازة الرئيس ريكس. كلّ الأمة في حال الحداد، وبدت المدينة رغم هذا كلّه، بكلّ تلك الأعلام المنكّسة، والطقس الجميل، وكأنّها في عيد. من حين لآخر كان البعض يجتمع بغتة، إنّهم مواطنون من محبّي النظام يحيطون بأرعِنَ ما، خرج بلحيةٍ وشعرٍ طويل، ليتهجّموا على حقّه في اغتيال رجال الشرطة والقضاء وممثليّ الحزب الثوري، وعلى حقّه، طبعاً في الحياة. بل إنّ محاولات انتقاميّة جرت أيضاً، حتّى إنّ الكثيرين من الشقر والملتحين انتهوا إلى المشافي. لكنّ أحداً منهم لم يمت بفضل تدخّل قوى الأمن السريع ضدّ المواطنين من محبّي النظام.

وسط الانفعال والفوضى اللذين أحاطا بجنازة آمار، تمكّن كوسان من الوصول في لحظة ما لصديقٍ، سمعه يقول: غداً في الساعة الخامسة عصراً، هنا أي في المقرّ المركزيّ. عاد أدراجه وقد أدّى واجبه بحضور الجنازة. رأى في صندوق بريده الرسالة التي أرسلها لنفسه. تركها في محلّها: ستسحبها زوجته إذا انتهى به الأمر نهاية روغاس (روغاس المسكين) قبل أن يقابل نائب الأمين العام.

وسط تلك المخاوف شعر كوسان أنّه خلق لنفسه شيئاً من التصنّع والاعتزاز: اختلط هذا الشعور بأصوات حقيقيّة قانطة كانت تعلو كلّما قرقع في البيت الأثاث أو كلّما اهتزّ الزجاج ورنّ.

في ساعة العصر من يوم الأربعاء استدعى سيّارة أجرة، استقلّها وتوجّه نحو المقرّ المركزيّ للحزب الثوريّ. وصل بالطبع قبل الموعد بحين، ممّا اضطره للتمشّي على الطريق ببطءٍ فضوليّ واستفزازيّ، منتظراً الضربة التي لم تصل.

دخل قبل ثلاث دقائق على الموعد، عبر الباب واجتاز الفسحة ثمّ صعد السلّم الواسع الفسيح المبنيّ على الطراز الباروكيّ. كان يجترّ أفكاره حول هذا الطراز الباروكيّ عندما تقدّم نائب الأمين العام ليستقبله في مكتبه الضخم ذي الأثاث الصارم والذي كان لأيّام خلت مكتب آمار، وهاهو آمار اليوم يطلّ عليه في صورة رسمها له خلال شبابه واحدٌ من أقدر الرسّامين الذين يناضلون في صفوف الحزب.

ـ إنّنا لا نكاد نصدق الذي حدث ـ قال نائب الأمين العام وهو يشير إلى الصورة. عبارة مألوفة يقولها المحزونون وأصدقاؤهم في زيارات المآتم. لكنّه كان يصدّق الذي حدث كلّ التصديق.

ـ أوه، طبعاً، انّه أمر لا يصدّق ـ قال كوسان.

ـ أطبق الصمت برهة، قال نائب الأمين العام بعدها ـ كنت أنتظرك... لا.. ليس الآن.. ليس في الموعد الذي حدّده صديقنا المشترك..بل كنت أنتظرك، ولنقل، منذ مساء الأحد...ذلك أنّي أعرف أنّك جادّ الطبع، صديق وفيّ للحزب... كان آمار شديد

الإعجاب بك، هل تعلم ذلك؟ لهذا فإنّ أيّ شكّ لم يراودني، كنت على يقين من أنّك لابدّ قادم إلينا، عاجلاً أم آجلاً، لتشرح لنا، لتوضّح لنا...

ـ لكن...

ـ عرفنا أنّك التقيت مع روغاس ذاك، قبل يوم من اجتماعه بآمار، أي في يوم السبت..

ـ نعم اجتمعت بروغاس. ثمّ تساءل وقد اعتراه بعض الحذر، لماذا قال "روغاس ذاك"؟

ـ ليكن معلوماً أنّنا عرفنا بهذا الاجتماع عن طريق غير مباشر، معلومات وصلتنا عن طريق الآخرين...لكنّنا لم نخبر أولئك الآخرين أنّنا نثق كليّة بجدّيتك وتكتّمك...وبذكائك بالطبع.

لكنّ ذكاء كوسان كان في تلك الآونة شبيهاً بمحرّكِ سيارةٍ مخنوق. قال ـ لقد جئت لأخبركم بما عرفته من روغاس خلال ذلك اللقاء.

ـ سأسجّل كلّ ما ستقوله، هل تستاء من هذا؟ إنّي أفعل هذا لمصلحتك، هكذا سيعرف الآخرون بصورة دقيقة وأمينة الدورَ الذي قمت به في الأمر كله. ثمّ ابتسم ـ وهكذا يتركونك بأمان ـ ثمّ سأل مرّة أخرى ـ هل تستاء؟ كان الأمر يسيء كوسان. ولم يفهم. لكنّه قال ـ لا، لا أستاء.

ضغط نائب الأمين العام على زرّ طاولته وقال ـ ها قد فعلت.

فبدأ كوسان بالكلام. كان الأرق والإرهاق الذين عانى منهما خلال الأيّام الأخيرة يهبان ذاكرته صفاءً وقوة. وهكذا كرّر كلّ ماكتبه في المذكّرة التي خبّأها بين صفحات "دون كيشوت". عندما

انتهى من حديثه نقر نائب الأمين العام بعصبيّة على مكتبه، وهو يحملق بكوسان بنظرات من الصعب فَهم كنهها. ثمّ اتّخذ وضعاً ينمّ عن هيبةٍ قاتمة وقال:

ـ سيّد كوسان... وبعد فترة صمت طويلة أضاف ـ ما رأيك، يا سيّد كوسان، إذا أخبرتك بأنّ صديقك روغاس هو الذي قتل آمار؟

شعر وكأنّ كميناً قد نصب له. ثمّ قال متهالكاً ـ مستحيل.

فتح نائب الأمين العام درج مكتبه وسحب منه أوراقاً قدّمها إلى كوسان فتناولها هذا بصورة آلية.

ـ اقرأ ـ قال نائب الأمين العام. وبمّا أنّ كوسان بقيَ يحملق به عوضاً عن أن يشرع بالقراءة، فقد شرح له النائب ـ إنّها صورةٌ عن شهادات خبراء العيارات النارية، والطبيب الشرعي وتقارير الخفراء، ثمّ تصريح الشرطيّ الذي قتل روغاس.

ـ كان شرطيّا إذاً هو الذي قتل روغاس، تماماً كما كنت أتوقع...

ـ نعم، لكنّه قتله لأنّه قتل آمار..

ـ لا أستطيع أن أصدّق.

ـ اسمعني يا سيّد كوسان ـ لأنّ كوسان بدا وكأنّه تائه في اضطرابِ فكره المحزون ـ اسمعني: لقد ذهب روغاس صباح السبت إلى مجلس ممثليّ الشعب، واستطاع الاجتماع بآمار، وكلّمه عن مؤامرة اكتشفها. لا أعرف على وجه الدقة ما الّذي دار بينهما من حديث. لأنّ آمار لم يخبرني سوى بأنّ أحد مفتّشي الشرطة أتى ليدلي له بمعلومات عن مؤامرة ما وبأنّهما سيجتمعان في الغد داخل المعرض الوطني. هنا تنتهي معلوماتي المباشرة. وتدخل في المسألة

المعلومات المستقاة من مركز الاستخبارات الخاصّة. وكان هذا المركز يراقب روغاس منذ وقت طويل بعد بروز شكوك بدت للأسف في محلها.

ـ لكنّهم راقبوه لأنّه وضع يده على المؤامرة.

ـ جائز، لكنّ المشكلة هي أنّ روغاس قتل آمار ولم يقتل أحداً من مدبّري المؤامرة.

ـ ولماذا؟ أعني، لماذا تعتقدون أنّ روغاس هو الذي قتل آمار؟

ـ لأنّ هناك في الوثائق التي أعطيتك إياها لتقرأها نوعاً من المنطق، من الحقيقة.. آمار قُتِل بالمسدّس الذي كان بيد روغاس عندما قُتِل هذا بدوره: وقد تحقّق من هذا خبراء جديرون بالثقة وبعضهم من أعضاء حزبنا وليس لديهم مجال للشك.. لكنّك قد تفكّر، كما فكّرنا نحن، أنّ روغاس قُتل أولاً ثمّ أُكملت المسرحية... بيد أنّه تمّ التأكّد من أنّ خفيراً واحداً فقط من خفراء الاستخبارات الخاصة كان موجوداً في المعرض الوطنيّ، وكان على هذا: أن يقتل روغاس أوّلاً، ثمّ ينزع منه مسدّسه، ليقتل آمار به بعدها. وآمار؟ ماذا كان بوسعه أن يفعل بينما كان الخفير ينزع مسدّس روغاس القتيل؟ هل سيبقى واقفاً ينتظر دوره؟ أنت تعرف أنّه سريع البديهة والتصرف، أنّه كان قتاليّاً، وكان يمارس مهنة السباحة والتنس. كان لابدّ أن يتحرّك، أليس كذلك؟ في هذه الحال، كان على الخفير أن يكمل خطته: أن يقتل روغاس، أن يضرب آمار حتى يغيب عن وعيه، ثمّ يأخذ مسدس روغاس ويطلق منه النار على آمار. لكنّ جثة آمار لا يظهر عليها آثار ضرب أو جروح. إذاً؟ علينا أن نعترف بأنّ روغاس كان متفقاً مع الخفير: ولهذا فقد قتل آمار من غير أن يعرف أنه سيُقتل هو أيضاً.

ـ مستحيل، قال كوسان.

ـ نحن أيضا نظنّ ذلك. لكن ليس تطييبا منّا لذكرى روغاس.

ـ أنا كنت أعرفه حقّ المعرفة ـ قال كوسان.

ـ ليس بما فيه الكفاية، يا سيّد كوسان، ليس بما فيه الكفاية.

ـ لكن لماذا يمكن أن يفكّر روغاس بقتل آمار؟

ـ لا نعرف. لكنّه قتله.

ـ وماذا يمكن لآمار أن يقول حتّى يستطيع إثارة روغاس؟

ـ سيّد كوسان ـ قالها بلهجة تأنيب مُحكمة.

ـ أعني حتّى يثير في روغاس سهواً أو ما شابهه..

ـ انظر... الحقيقة هي أنّ صديقك لم يكن يحبّنا، ..

ـ نعم، حتماً، لكنّه كان يحبّ فكرة المعارضة ويرى أنّ فيها ما يشبه الطقوس الدينية، ومن ناحية المعارضة فإنّ الحزب الثوري... باختصار..كان يحترمه، وعندما كلّمني، قال لمّا سمع مني النصيحة بالتحدّث إلى آمار، وهي نصيحة كان يتوقّعها منّي دون أدنى شك، قال لي انّه لا توجد طريقة أخرى.

ـ حتماً ـ قال نائب الأمين العام، بسخرية ـ لا توجد طريقة أخرى: التحدّث إلى آمار بفوهة مسدس.

ـ أمر لا يصدق، جنونيّ ـ قال كوسان.

ـ اقرأ التقارير ـ قال نائب الأمين العام.

وقد قرأها كوسان.

ـ لكن لماذا قتلوا روغاس ـ سأل. لماذا لا يستمعون إلى أقواله، لا يحاكمونه؟

ـ مصلحة الدولة، يا سيّد كوسان. مازالت مصالح الدولة موجودة كما كانت موجودة أيام ريشيليو Richelieu[1]. وقد تطابقت في هذه الحال مع مصالح الحزب... لهذا اتّخذ الخفير القرار الأشدّ حكمة: أن يقتل روغاس أيضاً.

ـ ومصلحة الحزب هذه...أنتم...الكذب... الحقيقة: الخلاصة...

ـ وكان كوسان يتلعثم.

ـ إنّنا واقعيّون، يا سيّد كوسان. ما كان بوسعنا أن نجازف ونترك الثورة تندلع، ثمّ أضاف ـ في هذه الفترة على الأقل.

ـ فهمت ـ قال كوسان ـ ليس في هذه الفترة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) Richelieu 1585ـ1642 كاردينال ونبيل فرنسيّ شغل مناصب دينيّة وسياسيّة هامةً واعتبر أول رئيس وزراء بالمعنى الحديث للكلمة.

نبيل رضا المهايني

ـ مواليد دمشق 1944.
ـ أقام في ايطاليا للدراسة ثمّ العمل بين عامي 1963 و1986.
ـ تخرج عام 1969 من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديمية الفنون الجميلة في مدينة فلورنسة، ثم تخرج عام 1973 باختصاص علوم الرأي العام ـ إخراج تلفزيون وسينما من جامعة الدراسات الاجتماعية في روما.

صدر له:

ـ بينوكيو، كارلو كولّودي.
ـ حبّ في سردينيا، ميلينا آغوس، Mal di Pietre
ـ مختارات من الأدب الإيطالي الكلاسيكي، تأليف وترجمة.
ـ مختارات من الأدب الإيطالي الحديث، تأليف وترجمة.
ـ أمريكان الضيعة، لويجي كابوانا، Gli Americani di Rabbato
ـ المؤرّخون العرب للحروب الصليبيّة، فرانشيسكو غابرييلي.
ـ قلب، ادموندو دي آميشيس، Cuore.
ـ شيزارِه بافيسِه، حياته وشعره وأعماله.
ـ صاحبة النزل، كارلو غولدوني.
ـ الماندراغولا، نيكولا مكيافيلّي.
ـ الصحارى العربيّة، نصوص وصور.
ـ المسرح الإرشادي في سوريّة.
ـ إيفاد في سوريّة.
ـ أنا وهو، ألبرتو مورافيا.
ـ الثورة المتواصلة (بالاشتراك مع إلياس مرقص) إنريكا بيشل.

ولد ليوناردو شاشّا في بلدة راكالموتو في جزيرة صقليّة الايطاليّة عام 1921.

شغل شاشّا عدّة مناصب سياسيّة في الدولة، وحزبيّة في الحزب الشيوعيّ الايطاليّ الذي استقال منه لاحقاً بسب خلافات منهجيّة. كما تمّ انتخاب شاشا نائباً في البرلمان الايطاليّ وفي البرلمان الأوربيّ. كتب شاشّا حوالي ٤٢ مؤلّفاً من روايات وكتب نقد وشعر ومسرح وسياسة، كما تم إخراج حوالي عشرة أفلام سينمائية شهيرة استوحيت من مؤلّفاته.

في عام 1989 مات ليوناردو شاشّا في مدينة باليرمو عاصمة صقليّة الإيطاليّة. ومع أنّه كان شيوعيّاً فقد أوصى بأن يدفن وفق المراسم الدينيّة الكنسيّة. وقد دفن في مسقط رأسه راكالموتو..

نشرت هذه الرواية عام 1971. وبنشرها عاد المؤلف إلى مواضيع الرواية ذات الشكل البوليسي والمحتوى النقديّ الساخر. تدور الرواية حول شخصية مفتّش شرطة يدعى روغاس يطلب منه أن يحقّق في جريمة غامضة ومعقّدة. ظنّ روغاس أنّ القصّة برمّتها حدثت بسبب خطأ قضائيّ ارتكبته مجموعة من القضاة ضدّ أحد المتّهمين. لكنّ الأحداث تتالت، ثمّ تعقّدت بعد مقتل كثير من القضاة الأخرين، قتلوا واحداً بعد الآخر وفي ظروف كانت تزداد تعقيداً كلّما تقدّمت أحداث هذه الرواية المشوّقة. ومع أنّ الرواية تدور في بلدٍ خياليّ، إلا أنّ الإشارة إلى إيطاليا وأحداث السبعينات فيها واضحة كلّ الوضوح.

في عام 1976 استوحى المخرج الإيطالي الكبير فرانشيسكو روزي أحداث هذه الرواية لينتج فيلمه الشهير "جثث فخمة" الذي لقي نجاحاً عالمياً منقطع النظير.

مكتبة
t.me/soramnqraa